عبد الفتاح ابراهيم

معنى الثورة

أضواء على ثورة ١٤ تموز

عبد الفتاح ابراهيم



معنى الثورة

اضواء على ثورة ١٤ تموز

يجد القاريء في هذه الدراسة عرضاً موجزاً لبعض أوجه ثورة الرابع عشر من تموز في قسمين ، الاول تناول مباديء نظرية الثورة ، وهو بمثابة المقدمة ؛ اما الثاني فتناول طبيعة ثورة الرابع عشر من تموز ومستلزماتها في ضوء نظرية الثورة •

ولعل ابرز نقص في هذه الدراسة تعرضها لكثير من شؤون ثورة الرابع عشر من تموز باقتضاب هو أقرب الى التنويه • وعذري ان الوقت لم يسعفني ولا كان في طاقتي ايفاء الموضوع حقه وهو يستلزم دراسات دقيقة لجميع نواحي حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا سيما دور الاحزاب ومقام القومية ، لا من حيث واقعها فحسب بل من حيث تخطيط السياسة الوطنية في ضوء تجارب العالم المتطور •

فارجو ان تقبل هذه الدراسة على علاتها ، عسى ان تكون محفزاً للمفكرين والكتاب لايفاء ما نوهت به أو أشرت اليه بحثاً مستفيضاً ينفع الناس •

بغداد ٣٠ ايلول ١٩٥٩

- ١ -

الثورة غير « الانقلاب »[١] الذي يعني « قلب الحكومة القائمة » واستبدال الجماعة التي في الحكم بجماعة أخرى لا تستهدف تبديلاً أساسياً في محتوى النظام القائم وانما تريد تطبيق أصول هذا النظام بشكل آخر وعلى يد جماعة غير التي تقوم في الحكم .

والثورة غير « الفتنة »[٢] التي ينشق فيها جانب من المجتمع على الحكومة القائمة ويلجأ الى استعمال السلاح في محاولة فرض مطاليبه أو اعلان انفصاله . وقد تتسع « الفتنة » حتى تنقلب الى ما يشبه « الحرب الاهلية » ؛ لكنها مهما اتسعت لا تكون « ثورة » لانهـا تدور حول خلاف محدود في قطاع محدود وتريد تحويراً جزئياً أو كلياً في ناحية واحدة دينية كانت أم اقتصادية أم سياسية .

واقل من الفتنة شأناً في علم السياسة ما يعبر عنه بـ « العصيان أو التمرد »[٣] وهو قيام جماعة في جزء محدود من البلاد ، تشق

---

(١) Coup d' etat

(٢) "Rebellion"

(٣) "Insurrection"

عصا الطاعة على الحكومة الشرعية وتخرج على القانون • والعصيان في جوهره عمل سلبي يعتمد على استعمال السلاح واضيق نطاقا من الفتنة ، الا انه قد يتسع حتى يصبح « فتنة » اذا استلزم في تصفيته استعمال جزء كبير من القوات المسلحة •

ان هذه الظواهر قد تنتاب المجتمع عندما تتنازعه عوامل التناقض ويصيب الهزال جهاز الحكم فيه ، وقد تكون الدليل على تململ القوى الاجتماعية للخروج من الاطار الذي ضيّق عليها مجال النمو وحصر حيويتها ، أو انها بوادر الانتفاضة الكبرى • ولكنها قد تكون على العكس : فقد يكون « الانقلاب » رجعياً أو محاولة للحيلولة دون تحقيق تبدل أساسي في الحياة العامة ، أو مؤامرة تهدف الى تفتيت قوى التبدل الذي أصبح وشيكاً بغية تأجيله ؛ وقد تكون « الفتنة » أو يكون العصيان محاولة للردة والانتكاس ومؤامرة رجعية على نظام قويم •

* * *

ان الثورة غير هذا وان كانت في خلال تكامل عواملها قد تأخذ ببعض هذا أو تأخذ به كله • ان الثورة في مدلولها تبدل ايجابي وانشائي ، جذري وشامل في محتوى النظام الاجتماعي وفي أهدافه وفيمن يحكم فيه• ففي السياسة مثلا ، قد يكون استبدال النظام الملكي بنظام جمهوري مظهراً من مظاهر الثورة ولكنه قد لا يمس جوهر نظام قائم فلا ينطوي على أي تغيير أساسي أو شامل ولا يمت الى ما يسمى بثورة ، وانما يكون « انقلاباً » فحسب • وفي الاقتصاد ، قد تكون خطة

الاعمار والتصنيع مظهراً من مظاهر الثورة أو تكون محاولة للاشغال والتخدير وللتسرب الاجنبي ولتفتيت القوى الوطنية • والامر في الاقتصاد والاعمار وان اختلف عما يصح قوله في النظام السياسي الذي قد يكون قشراً خالياً من اللباب ، الا ان النتائج في الاقتصاد رهن بطبيعة التخطيط ؛ فقد ينطبق تخطيط التصنيع والاعمار مع مقتضيات تحقيق ثورة ، أو يكون محاولة لخدمة اغراض الاستعمار والاستثمار الاجنبي والمحلي وارجاء ساعة الصفر الى أمد غير محدود • وما يصح في السياسة والاقتصاد ، يصح كذلك في وجوه الحياة العامة الاخرى ؛ ففي التشريع قد يوضع أو يقتبس من القوانين افضلها ، ولكن العبرة بالقوانين في التطبيق وبمن يقوم على التطبيق • والتعليم قد يعمم ولكن هذا التعليم العام موقوف على ما يراد به اصلا ؛ فقد يوجه لخدمة الاحتكارات وقد يوجه لخدمة الشعب وصيانة سلامته وحريته • والتكنيك والعلم قد يبلغ غاية التقدم ليصبح خطراً على السلام والإنسانية ، أو ان يكون على العكس عاملا في ضمان السلام وفي خدمة الانسانية •

ان الثورة تبدل عام وشامل في جميع قواعد الحياة العامة ومقوماتها • انها ليست تبدلاً سياسياً شكلياً وانما هي في الاساس تحول سلطة الحكم تحولاً كلياً الى جمهور الثورة • انها تحول جذري في نظام الاقتصاد وفي جميع مقومات الحياة العامة الاخرى من خدمة أغراض اصحاب السلطة في العهد الزائل وتحقيق مصالحهم الى خدمة جمهور الثورة وتحقيق مصلحة الشعب ؛ وهي تنطوي

بالضرورة على تبــدل أساسي في المعايير الاخلاقيــة والاجتماعيــة ومدلولاتها ، وفي تفسير الظواهر الاجتماعية وتعليلها ، بل وتنعكس في تحوير اجمالي في مقاييس الادب والفنون والتعبير والذوق وغيرها ، بما يساير العهد الجديد .

ان الثورة في حقيقتها عنصر أساسي من عناصر التطور . انها تحول من مرحلة اجتماعية الى أخرى فوقها في سلم الارتقاء . انهــا الحدث الجسيم الذي يعقب ساعة الصفر في معركة الحيــاة ويفــوز بالنصر الحاسم . وان الثورة بهذا المعنى تقوم في المجتمع كما تقوم في الطبيعة . ان بذرة الطور الجديد الذي تحققه أية ثورة تنمو في صلب النظام الاجتماعي الزائل متمثلة بتطوير مستلزمات الحياة وما ينشأ عنها ويلازمها أو يرافقها أو يتفاعل معهــا من تطور في وسائل الانتــاج وسائر العوامل الفكرية والاجتماعية والسياسية . ان التبدلات الجزئية تتراكم في حياة المجتمع النامي حتى تبلغ « في الكـم » درجة الاشباع ، وعندئذ تحل ساعة الصفر ، ساعة الثورة ، ساعة ميلاد العهد الجديد . ان عوامل النمو في حيــاة المجتمع تتراكم وتتجمع وترتبط بروابط الوعي المنظم وتزداد « كمــاً » حتى تهشم اطار النظام الذى كانت حبيسة فيه وتخرج منه الى طور توفر لنفسها فيه أسباب الحياة التي تنشدها ، وبذلك يتحقق تحول « الكـم » الى « النــوع » بحكـم الضرورة وبحكم ارادة الثورة التي تعبر عن ارادة الشعب . ومثل هذا يحدث في الطبيعة في كل تحول ـ التحــول الكمّي الى النوعي وبالعكس ، وان كان تحولاً من غير ارادة أو وعي ؛ تماما كما يحدث

للجنين عندما يبلغ نموه حد التكامل وتحل ساعة الصفر فيثور ويخرج الى عالمه الجديد يصرخ ويرفس ويلوح بساعديه في الهواء ؛ أو كما يصنع « الفرخ » حين يهشم قشر البيضة ويخرج منه راكضاً ينشد الحياة الطليقة الحرة • ولا يقتصر مثل هذا التحول بفعل التغيرات الكمية أو النوعية على ما يجري في عالم الحيوان فقط ، وانما يحدث فيما نسميه بعالم الجماد • فالماء مثلاً يبقى محتفظاً بحالته السائلة ظاهرياً رغم تناقص درجات الحرارة أو ارتفاعها حتى يبلغ الحد المقرر لاحتماله ، وعندها يخرج على طبيعته المألوفة فيتحول الى جليد أو يتحول الى بخار • ومثل هذا ما يحدث عندما تزداد الكمية من السكر المتراكمة في الماء مثلاً ، حتى يبلغ السائل درجة الاشباع فيحدث التبلور لاي سبب مباشر •

فالثورة في المجتمع ، اذاً ، ظاهرة طبيعية لتحول أساسي وجذري في الحياة العامة • انها انقطاع لاستمرار وضع قائم وقيام عهد جديد • وهي ان بدت وكأنها حدث فجائي حاسم الا انها في الواقع نتيجة تراكم العوامل المناهضة للوضع الزائل تنمو في كيانه حتى تبلغ أشدها وتفرض ارادتها التي لا مرد لها •

* * *

وقد اتصفت « الثورة » قبل القرن التاسع عشر بصفة معينة مثل الثورة الفكرية أو الثورة التجارية أو الثورة الصناعية ، وذلك باعتبار ان هذه الاحداث كان لها الاثر الفعال في تبديل طبيعة المجتمعات الاوربية بحيث مهدت السبيل الى التبدل العام الشامل الذي أدى الى

قيام الثورة الفرنسية والثورات التي اعقبتها في خلال القرن التاسع عشر ، فاتمت التحول من مرحلة الاقطاع الى مرحلة البرجوازية والرأسمالية . ولكن مدلول الثورة اصبح الآن اجتماعياً شاملاً من جهة، ومقترناً بالعنف من جهة أخرى ، باعتبار ان النظم السياسية والاجتماعية المألوفة لم يتوفر في أي منها من المرونة ما يجعل في المستطاع قيام تبدل أساسي يرتضيه الذين بيدهم مقاليد السلطة أو من يمثلونهم ممن يحصر فيهم النظام الذي يراد تبديله جل الانتفاع . ولذلك كان من مستلزمات كل ثورة ان تخرج على قانون النظام الزائل وتنكر مشروعيته وتشرع لها قوانينها الخاصة بالشكل الذي يعبر عن ارادتها وينسجم مع مقتضيات تحقيق اهدافها .

ولما كانت « الثورة » تنطوي في الاساس على تبدل جذري وشامل في كيان المجتمع ، ولما كان المقوم الرئيسي الظاهر الاثر في نظام كل مجتمع هو انقسام الناس الى فريق محدود يتمتع بالوفرة ويتحكم في المجتمع عن طريق ملكيته لوسائل الانتاج وسيطرته عليها ، والى سواد اعظم يقوم بالعمل الجسمي وباعمال الادارة ويعيش في ضنك نسبي ، فقد اتسمت جميع الثورات بانها صراع بين هاتين الطبقتين، وبانها ثورة الجمهور الذي حفزته قسوة الحاجة ليخرج على الذين أذلوه وحكموا فيه الفاقة والعوز المرير . ان هذا التناقض بين مصلحة الفئة المسيطرة والجمهور المستغل ، كان في الواقع القوة المحركة الفعالة في كل ثورة . وعلى الرغم من ان الفئة المتحكمة تمثل دائماً فئة صغيرة في المجتمعات القائمة على هذا التناقض ، الا انها تحاول

ان تدعم كيانها وتسخر للدفاع عن مصالحها ، الجماعات المائعة المتمثلة بمختلف الفئات التي يقع مستواها وسطا بين الذين استقطبت في يدهم الثروة ، وجمهور الكادحين الذين أثارتهم قسوة الفاقة ومرارة العوز ، وذلك باثارة مخاوف هذه الجماعات مما قد يؤول اليه مصيرها في معمعان الثورة وما قد يأتي في اعقابها من دمار وفوضى • ولهذا كان من مستلزمات كل ثورة عزل هذه الجماعات عن الفئة المتحكمة في المجتمع وضمها الى جمهور الشعب بتأثير الدعاية والتنظيم واشاعة الوعي الموجه لهذا الغرض •

وان الذي يحدد ساعة الصفر في كل ثورة هو استقطاب السلطة وما يلازمها من منافع في فئة صغيرة منعزلة ، وانتظام الشعب في كتلة كبرى متبرمة بالوضع السائد ، واتساع الثغرة بين الجانبين ، وما ينشأ عن ذلك من انحطاط في جهاز الحكم ، وما يؤول اليه من انقطاع الصلة بين الحكومة والشعب ، بحيث يكون السواد الاعظم مستعداً للانتقاض على الحاكمين عند أول فرصة سانحة •

• • •

ولقد كان من مستلزمات كل ثورة ، تنمية الوعي الشعبي باظهار مفاسد النظام السابق وتنظيم القوى الاجتماعية التي اطلقتها الثورة ، وتثبيت اهداف الثورة ومثلها ، واعلان الشعارات المعبرة عما يراد تحقيقه أو ازالته بشكل يثير الحماس ويوحد الصفوف ويدفع الجمهور الى مواصلة النضال حتى تقتلع جذور النظام الزائل وتستقر قواعد النظام الجديد ؛ ذلك ان ثورة تستهدف تبديلاً جذرياً في أصول الحياة

العامة لا يمكن ان تحقق اهدافها بضربة واحدة أو في فترة قصيرة ؛ فالحدث الذي يعقب ساعة الصفر في كل ثورة انما هو فاتحة سلسلة من التطورات الخطيرة في حياة المجتمع ؛ وان المجتمع ليبقى أمداً غير قصير ، عقيب هذا الحدث الجسيم ، معرضاً للاخطار وكأنه الوليد الذي ترتب عليه ان يشق لنفسه طريق الحياة في عالم جديد محفوف بالمفاجئات •

فليس من ريب ، في ان التقدير الصحيح لساعة الصفر والتوقيت الدقيق لاعلان الثورة وانزال الضربة الحاسمة ، يثير شعوراً بالانتصار واندفاعاً جارفاً في صفوف الجماهير ، ويحقق اندماجاً كاملاً بين الحكومة والشعب من جهة ، ويشل من الجهة الاخرى كل قوى العهد الزائل ، حتى يتملكها الشعور باليأس وتنساق في ذلة تتملق العهد الجديد وتتظاهر بتأييده مستسلمة الى مصيرها المحتوم •

ان الانتصار الساحق الذي يعقب الضربة الاولى يبدو وكأنه وحّد الناس في كتلة واحدة ؛ حتى ان نشوة النصر تطغي فتجرف الكثير من انصار العهد الزائل في تيار الثورة ، لاسيما غير الواعين منهم ، فلا يجدون أنفسهم الا وقد أخذوا بمنطق الثورة فتبنوا فلسفتها وذهلوا عن ماضيهم فانساقوا في تيار الثورة عن شعور صادق وكأنهم وعوا على حين غرة كل معايب الوضع السابق وفظائعه ومفاسده • والواقع ان الثورة انما تقوم بمجموع الناس على اختلاف طبقاتهم وميولهم ، ضد الطغمة التي استقطبت فيها الثروة وانحصرت بيدها مقاليد السلطة ، وتكون في الغالب فئة صغيرة حجبها تركز الثروة والسلطة

فيها عن الناس وعزلها عنهم ووسع الثغرة بينها وبين الشعب حتى انقطعت صلتها به .

على ان الناس في كل مجتمع ينقسمون في طبقات وفي مراتب اجتماعية متفاوتة في مصالحها واغراضها . ان نشوة الانتصار على الطغمة التي استبدت بالمجموع واحتكرت دونه خيرات الحياة العامة قد تغمر المجموع فيذهل عن الفوارق التي تقوم بها طبقاته ومراتبه ، ويغفل تفاوت المصالح بين هذه الطبقات والمراتب ، فيندفع بشعارات الثورة اندفاعاً عارماً في اتجاه اسمى الاهداف وابعدها وهي تحرير الشعب - الاغلبية الساحقة من الشعب - التي قامت في ادنى درجات المجتمع وكابدت القسط الاكبر من اعباء العهد الزائل وقاست جل ويلاته وراحت تنشد التسوية الحاسمة والنهائية للفوارق التي تقوم بين الناس وتميز بين طبقاتهم ومراتبهم الاجتماعية . لكن هذا الاندفاع لا يلبث ان يثير مخاوف المراتب الاخرى فيساورها القلق وتثوب الى شعورها بالفوارق وتخشى ضياع مقامها وخسران ما تتمتع به ، فيأخذ حماسها ، الواحدة تلو الاخرى ، أولا بالهفوت حتى تتوقف عن السير ، ثم ينقلب الى محاولة لعرقلة مجرى الاندفاع ، ثم ينكشف في معارضة تريد ايقاف الثورة عند الحد الذي تصطدم الثورة فيه بمصالحها .

هكذا ينشأ الانقسام في صفوف جمهور الثورة. ويبدأ في المرتبة العليا التي تحاول ان توقف الثورة عند الحد الذي تحققت فيه مطامحها وأهدافها ، فتشرع تنادى بالاعتدال وتتطير من مغبة اندفاع

الثورة الى ما يصور لها انه تطرف وفوضى ؛ فتبالغ في اظهار الحوادث بمظهر اخطار فقدان النظام والاستهانة بالقانون • وتلحق بها بعد ذلك المراتب التي تليها ، فتسند دعاواها وتشد ساعدها • وبذلك ينشق صف الثورة الى دعاة الاعتدال في جانب والى الجمهور الذي لما تزل أمانيه في الثورة غير محققة في جانب ، اذ يبقى مندفعاً في تيارها ينشد التسوية والعدل ويطالب بانجاز ما اعلنته الثورة من الشعارات التي حمل لواءها وطالب بانجازها •

* * *

وتتشجع العناصر المناوئة للثورة بهذا الانقسام ، فتخرج من مخابئها وتندس بين الجمهور ، توسوس له وتتهامس ، ومن ثم تنشط الى العمل ؛ فتبدأ باقصى المعتدلين ومن بعدهم الذين يلونهم فتجرهم الى التسامح معها اولا ، ومن ثم الى التعاون ، وبذلك يتيسر لها ان تستخدمهم في تهيأة السبيل لها من حيث يشعرون ولا يشعرون ، لتزيد في نشاطها التخريبي الذي قد يأخذ بالتفاقم حتى يتهدد الثورة بالانتكاس •

ويكون من أول مظاهر الانقسام في صفوف الثورة وتزايد نشاط العناصر المناوئة لها ، نشوب المصادمات الدموية وقيام اعمال العنف والتخريب والاغتيال ، الامر الذي لا يستبعد أن يؤدي الى قيام حرب أهلية • واذا صارت الغلبة الى الثورة واستعادت وحدة صفوفها بشكل من الاشكال واصلت سيرها في تحقيق اهدافها • واذا غلبت على أمرها واستطاعت القوى المناوئة لها ان تصطنع حكومة من

المعتدلين ، دخلت الثورة في مرحلة غير مستقرة لا ترضي الثوريين ولا ترضي العناصر المناوئة للثورة التي تمضي تواصل نشاطها المتزايد ، منتفعة بتمسك المعتدلين بالنظام والقانون ، حتى تجد سبيلها الى العودة بالمجتمع الى وضع يماثل في قليل أو كثير ، الوضع الذي دكت الثورة مقوماته .

بيد ان تاريخ الثورات ، يظهر لنا ان العناصر الرجعية مهما تيسرت لها سبل العمل فهي - لقلة عددها وتجردها من مقامها وانكشاف حقيقتها - غير قادرة بمفردها على مواجهة جمهور الثورة حتى وهو منقسم على نفسه . ولهذا تلجأ الى الاستعانة بالقوى الاجنبية المعادية لحكومة الثورة ، وتعمل من وراء واجهات من المعارضة المبرقعة بشعارات وطنية خداعة تستميل بها العناصر التي وقفت من الثورة موقف الحياد ولم تأخذ جانبها الا بعد ان تحقق لها النصر . ومن ثم تبدأ في استمالة العناصر غير الواعية من الجمهور ، التي خيبت الثورة آمالها اذ لم تحقق لها ما كانت تتوق اليه من الخير والرفاه في وقت قصير .

ومن العوامل التي تساعد الرجعية في جر المجتمع الى الانتكاس تحرير الثورة جمهوراً من الناس مفتقراً الى الوعي الثوري ، يجد نفسه على حين غرة ، وقد نزعت عنه القيود واطلق سراحه فخرج الى فضاء الحياة كمن خرج من ظلمة حالكة فعجز عن تمييز حقيقة ما حوله وراح يتخبط على غير هدى . ففريق لا يجد مفراً من العودة لاسياده القدماء بحكم عادة الخضوع والاستسلام ، ليكون أداة طيعة

يسخرونها ضد الثورة ؛ وفريق تتملكه النزوة الى الفوضى وتغلبه مناشد الكبت والحرمان فيكون أداة عبث وتخريب ، يشوه مظاهر الثورة ويكون حجة بيد الرجعية ضدها .

على ان من اخطر ما تتعرض له الثورة في الازمات ، ما ينطوى عليه جهاز الدولة من عناصر الفساد في صفوف الموظفين وقوى الامن التي قد لا تجد في الثورة ما كانت تتمتع به في ظل العهد الزائل من موارد الرشوة وسوء التصرف بالمصالح العامة ، وما يتوافر لها من مظاهر السلطة في مجتمع فرضت فيه على الناس الذلة والمسكنة وحرموا من الحرية وسيقوا كالنعاج .

* * *

كل ذلك يجعل من مستلزمات كل ثورة ان تجتاز دور انتقال يقوم فيه نظام خاص للحكم يستند الى ارادة جمهور الثورة ، ويعمل على حمايتها وانجاز مقتضيات الانتقال الى المرحلة الاجتماعية التي تنشدها ، كما يعمل على صيانة مكاسبها واحباط المؤامرات التي تدبر ضدها ، وصد ما قد تتعرض له من مخاطر العدوان من الداخل والخارج .

ومن الطبيعي ان يلغى جهاز الحكم في دور الانتقال ، قوانين الحكم التي شرعت لتأمين مصالح النظام السابق ويتجاهلها ، فيحكم باسم قانون الثورة ، القانون المستمد من مقتضيات تصفية النظام الزائل وتاسيس النظام الجديد . ومن الطبيعي ايضا ان يبدو هذا القانون في منطقه واصوله غريبا عما الفه الناس ، وانه ليبدو كذلك حتى لفريق من جمهور الثورة ممن لم يستوعب أهداف الثورة

وضروراتها ، فيتسم الحكم في نظرهم بسمة الاستبداد وهو بالفعل طراز من الاستبداد ، استبداد الشعب في اجهازه على النظام السابق لاقتلاع جذوره واستبداله بنظام العهد الجديد ، أو كما أسماه « روبسبير » استبداد الحرية ضد الطغيان – وهو كما في الاشتراكية « دكتاتورية البروليتارية » في مرحلة الانتقال الى الشيوعية .

والعدالة كما لا يخفى عدالة نسبية ، والقانون لا يقوم على اساس العدالة المطلقة ، وانما يشرع بمعايير العدالة النسبية ، أو على الاصح حسب مقتضيات مصالح الطبقة التي تكون لها الغلبة في مرحلة اجتماعية معينة . ان العدالة مربوطة بالواقع وقائمة من أجله ؛ انها كالكساء الذي يراد به حماية الجسم وان يكون ملائماً له ؛ وان الذي يريد لباساً يناسبه لا يطلب الى الخياط ان يتخذ من جسم فينوس أو اله الجمال نموذجاً . ولهذا كان للعدالة حدود تعين في كل مرحلة بما يناسبها . ففي الاقطاع تجيز العدالة للاقطاعي ان يقتل الفلاح وهو رقيق الارض اذا تجاوز الحدود المعينة له ، وتجيز له ان يعبث بهذا الرقيق وباهله كما يهوى . وفي نظام الملكية على العموم ، يكون للثروة المقام الاول ويحق للمالك ان يدافع عما يملك حتى اذا اقتضى ذلك قتل أخيه الانسان ؛ وان الذي يعتدي على ما يعود لغيره حتى اذا كان ذلك في سبيل دفع الموت عمن يعيل ، يدان في قانون الملكية بجريمة السرقة دون التفات لما ينطوي عليه ذلك من تبرير موت انسان يحتاج الى غذاء أو خلافه يملكه انسان آخر هو في غنى عنه . اننا لا نريد بهذا ان ننكر على هذه القوانين مراعاتها لقواعد العدالة أو نقول انها

باطلة ، انها في الواقع قائمة بحكم الضرورة لحماية النظام من الفوضى في مقاييس المرحلة الاجتماعيـة التي تقوم فيها ؛ وانما نريد ان ندلل على ان العدالة انما تقاس بمقياس الضرورة ، أو بتعبير آخر بمقياس مصلحة الطبقة الغالبة في كل مرحلة .

ومن هذا يبدو انه ليس غريباً ان تنعكس مقاييس هذه العدالة النسبية عندما يتحول المجتمع من مرحلة اجتماعية معينـة الى مرحلة أخرى تقوم على خلافها ، فتنقلب الاقطاعية الى سبة وجر ـه وكذلك يصبح الاحتكار والاستغلال ببعض أشكاله أو بها جميعا ؛ تماما كما انقلب الامر بالاصنام وكهنوتها وعبادها ونظامها بانتصار ديانات التوحيد ؛ والا فكيف يمكن بمقاييس العدالة السائدة في مجتمع يقوم على أساس الملكية ، أن يبرر الاستيلاء على أملاك الغير أو تبرر مصادرتها وتلغي الحقوق التي قومت الاقطاع وتلك التي أباحت الاستغلال وهي أساس الحقوق في مجتمع يقوم على الملكية ؛ وكيف يمكن ، اذا التزم بمقياس العدالة في مجتمع يقوم على الملكية ، أن يلغى الاقطاع أو تحدد الملكية أو يلغى الاستغلال أو يقيد بحدود وشروط . واذاً ، فعدالة الثورة انما تقوم لخدمة أغراض الثورة وتوفير مستلزماتها ، وتقاس بمقتضيات المجتمع التي تعمل على وضع أسسه وانجاز مقوماته .

* * *

ومن مستلزمات كل ثورة ان تكون القوى الجديدة المتمثلة في جمهورها متميزة عن العناصر التي قام بها النظام الزائل ، بخصائص تعتز بها وتتحمس لها وتقيم بمبلغ اعتزازها بهذه الخصائص وشدة

حماسها لها ، الدليل على قدرتها في اتمام رسالتها وفي البقاء ومواصلة النمو . وان ثورة لا تعي خصائصها الاساسية ولا تتحمس لها ولا تعتز بها ولا تدرك ان جمهورها الذي كان لا شيء يجب أن يكون كل شيء ، وترضي أو تفسح المجال بان يسوي مناوئيها مشاكلهم ويتخفوا عن انظارها أو يتستروا تحت واجهات خداعة ليندسوا في صفوفها أو يندمجوا بجمهورها ، ان ثورة مثل هذه لا تكون قادرة على تصفية النظام السابق تصفية نهائية وانشاء مقومات عهد جديد .

* * *

واذاً ، فان من مستلزمات كل ثورة ان يكون لها منطقها الخاص ، منطق يقوّم ايمانها بكيانها الخاص ، وبأن هذا الكيان غريب عن الكيان الذي يترتب عليها أن تقتلع جذوره ، ومناقض له . وان منطق الثورة الذي يناهض بالضرورة منطق النظام الذي تريد ازالته ، هو الذي يعزز تصميمها ويبعث فيها الجرأة والايمان الذي لا يساوره الشك ، ويدفعها الى العمل على اتمام رسالتها وتصفية النظام الزائل .

ان منطق الثورة يستمد اسلوبه ومعاييره من طبيعة الثورة وأهدافها، ويكون المعوّل عليه في كشف معايب العهد الزائل وفي ابراز خصائص العهد الجديد ومحاسنه ، وفي تعيين القواعد التي يستند اليها العهد الجديد في تشريع القوانين وفي وضع الانظمة وفي سائر التنظيمات الاجتماعية التي تقوم بديلا لما اعتمد عليه العهد الزائل ، بل يكون المعوّل عليه في توجيه التعليم وتحوير مقاييس الاخلاق والادب والفنون وسائر مظاهر الحياة الاجتماعية حسب مقتضيات العهد الجديد .

ولا يقوم منطق الثورة مستقلاً عن جمهورها فيصطنع اصوله وقواعده في معزل عن واقع الحياة العامة ومجرى الاحداث ، وانما يكون من صنع جمهور الثورة ، تصاغ قواعده بشعارات الثورة وتياراتها واحداثها ، وينبعث اسلوبه من صميم احاسيس جمهور الثورة ومجرى حياتها ، ويكون في محتواه وسيلة التعبير عن أهداف الثورة ومراميها . ومن ثم يكون هذا المنطق المحرك الفعال الذي يستجيب له الجمهور ويفهمه ويستسيغه ويتحرك بمقتضاه ، حتى يصبح احدى القوى الفعالة في اثارة عواطف الجمهور والهاب روح الحماسة والحمية فيه ، وضمان اندفاعه بقوة نحو تحقيق اهداف الثورة واجتياز العقبات ومكابدة المشاق وتقبل التضحيات والصبر على المكاره والصمود بوجه الاحداث .

وانه ليس من السهل على الناس ان يتقبلوا الافكار التي جبلوا على نقيضها ، أو ان يستبدلوا الذي ألفوه بالجديد الذي يخالفه . وغالب الناس انما يستسلم في تفكيره لحكم العادة الفكرية ، فلا يستجيب لحكم العقل بمثل ما يخضع لما ارتضاه ذهنه وتغلغل في نفسه من الآراء والمعتقدات التي تقبلها بسبيل التقليد والمجاراة والتكرار . وليس غريبا ان نجد فيمن ألف العبودية ونشأ عليها من يجفل من اقتحام فضاء الحرية ؛ وان نجد في الناس من يرجح ما فيه ضره وقد اعتاد عليه على ما فيه خيره وصلاح حاله وهو لم يخبره .

ولهذا ، كان منطق الثورة الذي يترتب عليه ان يقتلع ما جبلت عليه النفوس والاذهان من ترسبات العهد الزائل ، ويمهد السبيل

لتغلغل افكار الثورة وشيوعها ، واستبدال المساند الفكرية التي صيغت بموجبها قواعد النظام الزائل وقوانينه ومقوماته الادبية والفنية والخلقية ، كان هذا المنطق الثوري المتحرر من قيود العهد الزائل والمناهض له ، من مستلزمات الثورة ومقوماتها ، وبه تتعين مقاييس العدل ومعايير الاخلاق وسائر القيم الفكرية والادبية والفنية بما يلائم اهداف الثورة ويساعد في ارساء قواعد النظام الجديد •

★ ★ ★

ويقوم الشعراء والادباء والمفكرون بالسبق في الكشف عن معايب اوضاع ما قبل الثورة وتصوير الوضع المنشود ، فيعملون على زعزعة الاسس التي تستند اليها الاوضاع القائمة ، وعلى نقض القواعد التي يرجع اليها منطق النظام المائل الى الزوال في تعيين معايير العدالة والمقاييس الاجتماعية ، ويكشفون للناس اختلال ميزان العدالة ، ويعروا الطبقة الحاكمة فتبدو وكأنها تجردت من فضائل الاخلاق وانجرفت في مهاوى الرذيلة والتحلل • ويعملون من الجهة الاخرى على تعيين المثل للمجتمع الافضل ووضع قواعد منطق اجتماعي ينسجم ومقتضيات هذا المجتمع الافضل كما يصورونه ، في العدالة وفي مبادىء الاخلاق وسائر المبادىء الاجتماعية • والقارىء لابد وان يعرف ويثمن دور الشعراء والادباء والمفكرين الذين ظهروا في أوربا أبان قيام الثورة الفرنسية ، وكذلك الذين ظهروا قبيل قيام الثورات الاشتراكية التي بدت بوادرها في أوربا منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر وتمت بثورة اكتوبر ، وما كان لهم من

أثر في زعزعة ثقة الناس بسلامة أوضاع ما قبل هذه الثورات وفي توجيههم للاخذ بالمباديء التي حملت هذه الثورات رايتها •

والواقع ان الشعراء والادباء والمفكرين يقومون بدور فعال في تهيأة الاذهان وشحذ الهمم وتعبئة القوى الاجتماعية واعداد العدة للثورة المرتقبة ، فلا تكاد تحل ساعة الصفر وتعطي اشارة الثورة – أية ثورة – حتى يهب الشعب هبة رجل واحد ، وكأنه على موعد ، لانزال الضربة القاضية وتعيين الاتجاه الجديد ، وهو يعرف ما يريد وكيف يعمل على تحقيقه •

* * *

ومن طبيعة كل ثورة ان ينشأ عنها « مد شعبي » يقوم بها ويلازمها حتى تحقق أهدافها وتوطد أركان النظام الجديد • ومنشأ هذا المد ، انطلاق القوى الاجتماعية المكبوتة التي حرمها النظام الزائل من الحرية وقيدها في نطاق محدود ينسجم ومقتضيات مصلحته •

ويتكون هذا « المد الشعبي » من تفجر المجتمع برمته عن طاقات جماهيرية هائلة كانت حبيسة في العهد الزائل ، ويكشف عن حيوية فائقة في القدرة على الانشاء والابداع ، وتتسامى به الاحساسات الانسانية فيندفع الشعب به رافعاً راية التحرر عالياً ويمضي في طريق التقدم وكأنه الطليعة التي تقود الانسانية الى أمام •

ان هذا « المد الشعبي » الذي تتحقق به المعجزات ، مثل وحدة الشعب والحكومة ، واندماج الجيش بالشعب ، وانصهار عموم الناس على اختلاف مصالحهم ومراتبهم ومنازعهم ومذاهبهم الدينية

والفكرية في مجموع متضامن ومندفع في انشاء الحياة الجديدة بحماس لم يسبق له مثيل ، وكأنهم في معركة لا هوادة فيها ، ان هذا « المدّ الشعبي » يعتبر بحق شعلة الثورة واثمن ما فيها ، والدافع الفعال الذي يدفع المجتمع ليلحق بركب الانسانية المتقدم ، ويحقق لها فتحاً جديداً في عالم الارتقاء . انه « جوهر » الثورة ، ومبعث قوتها وحياتها ، به تقوم حكومة الثورة وتتجلى ارادة الشعب ، ومنه تستمد الثورة شرعيتها وتشاريعها ، وبه يتعين اتجاهها ومدى اندفاعها في تحقيق أهدافها . ولعل من أروع الامثلة على ما يتيسر تحقيقه في « المدّ الشعبي » ، ما حققه العرب في القرون الوسطى عندما اكتسح مدّ ثورتهم ، تحت راية الاسلام ، امبراطوريات العهد القديم رافعاً راية التحرر في المعمورة ؛ وما حققته الثورة الفرنسية التي غمر مدها القارة الاوربية رافعاً راية الحرية والاخوة والمساواة ؛ وما انجزته « ثورة اكتوبر » التي قلبت نظام القيصرية وحققت لشعوبها المتأخرة ، رغم العقبات التي وضعت في سبيلها ، في مدى اربعين سنة ، ما يسر لها التفوق على أمم سبقتها في مضمار التقدم بضع مئات من السنين ؛ واننا لنشهد اليوم في ثورة الصين بفضل «المدّ الشعبي » من روائع الانجازات ما يكاد لا يصدق .

* * *

على ان « المدّ الشعبي » الذي هو مبعث الخير والقوة والابداع في كل ثورة قد ينقلب الى شر وبلبلة وفوضى ، كالمشعل الذي ينير السبيل وقد يسبب الحريق . ان « المدّ الشعبي » انما يتجلى خيره

ونفعه بالتنظيم والضبط • ولهذا كان التنظيم والضبط عنصرين أساسيين في كل ثورة تحقق رسالتها ؛ وكان لابد وان تنتظم قوى الشعب في منظمات مؤتلفة على الصعيد السياسي ، تجمع كلمة الشعب على اختلاف المصالح والمراتب والنزعات ، في قاسم مشترك يوحد الصف الوطني ، حتى تجتاز الثورة دور الخطر ويتم التحول الى العهد الجديد وتستقر مقوماته • ولابد كذلك ، ان يمتد هذا التنظيم ، على صعيد التنظيم الاجتماعي ، فيشمل كل مرافق الحياة العامة حسب مقتضيات الثورة وطبيعتها ، فيقوم في الجيش وفي صفوف الموظفين وارباب المهن ورجال الادب والعلم والفن وفي المعمل وفي المدرسة وفي صفوف الرجال والنساء والشباب والاولاد والاطفال ، في المدن والقرى والريف ، بحيث تتم تعبأة قوى الشعب بكاملها لخدمة الثورة والعمل على تحقيق اهدافها •

وواجب هذا التنظيم الشامل هو ان يبقى شعلة الثورة نيرة ويديم « المد الشعبي » باثارة الحماس وشحذ الهمم ورفع الشعارات والنداءات التي توحد الكلمة وترص الصفوف وتدعو الى اليقظة والحذر وتشجع على مواصلة العمل الانشائي بجد ونشاط ، وتجعل الناس جميعا يشعرون كما يشعر الجندي الشجاع في ميدان المعركة ؛ وما الثورة في الواقع غير معركة اجتماعية فاصلة •

اما الضبط فاهميته في الثورة لا تقل عن أهمية التنظيم ، بل هو يمثل في الواقع وجهاً من وجوهه وهدفاً من أهدافه الاساسية : أولاً ، لان التبدل الجذري الشامل ، وهو ما تنطوي عليه كل ثورة ،

لابد وان يزعزع التوازن الاجتماعي الذي يقوم به النظام المائل الى الزوال ، ويفرض توازناً جديداً بين عناصر الحياة الاجتماعية من شأنه ان يجرد بعض الطبقات من امتيازاتها ويحقق للطبقات الاخرى حقوقاً حرمت منها في العهد الزائل ؛ ولا مفر من ان ينشأ عن ذلك ألم وغيض وتنكر في جانب ، وشكوك وتوجس وتحفز في الجانب الاخر ؛ وثانياً ، لانه لا مفر من ان يترك النظام الزائل وراءه ألماً ممضاً واحقاداً دفينة في نفوس الذين كابدوا الظلم والاضطهاد ضد من كانوا في العهد الزائل أداة لهذا الظلم والاضطهاد ؛ ولذلك كان من ضرورات التنظيم ، ان يعي هذه الحقائق ليخفف من تأثير الضغائن والاحقاد وليضبط الاندفاعات المنحرفة التي قد تميل بالثورة عن اتجاهها الايجابي الذي ينشىء الحياة الجديدة الى الاتجاه السلبي المدمر .

* * *

وأخيرا ، فان من مستلزمات الثورة ومن ابرز مظاهرها الاصلية وأخطرها شأنا ، ان يكون في قمة التنظيم في الصعيد السياسي والاجتماعي على السواء ، مركز قيادة في رأسه زعيم يرفع راية الثورة ، ويعبّر عن ارادة جمهورها ، ويستوعب الاهداف التي تريد تحقيقها ، ويوجه سيرها ويدرك مداه ، ويكون المرجع الذي تنتهي اليه جميع خيوط التنظيم السياسي والاجتماعي .

فالثورة في وجه من وجوهها ، حالة اجتماعية تماثل المعركة في أشد أوارها ، انها انطلاق الشعب بكامله في ميدان المعركة ؛ ولذلك

كان من الواضح ان تكون الحاجة الى القيادة فيها على أشدها ؛ وان يكون مركز هذه القيادة ملماً بما يجري من حوله وما يحيط به وعارفاً ما يريد ؛ وان يكون فوق ذلك ، ممثـلا للاتجـاهات السياسيـة والاجتماعية التي تستوعبها الثـورة ، وعلى اتصـال ايجـابي وفعـال بجميع المنظمات الاجتماعية في شتى مرافق الحياة العـامة ومتجاوباً معها تجاوباً انشائياً يسـاعد على تجنيد كل قواها في تحقيـق أهداف الثـورة •

والثورة من جهة أخرى ، تختلف عن حالة الحرب من حيث انها أكثر تعقيدا وأشد خطورة ، ولهذا يكون واجب الزعيم ومركز قيادته ومقتضيات هذه القيادة أوسع شمولاً مما هو مطلوب في المعارك الحربية • فالثورة تتناول بطبيعتها شؤون الحياة اليومية والعامة بشكل مزدوج ، وعلى ذلك يكون واجب القيادة ان تعنى بمجرى الحياة العامة في سيرها المعتاد بشكل ينسجم ومخطط الثورة من جهة ؛ وان تعنى من جهـة أخرى بضبط الاندفاع الى أمام بسرعة غـير مألوفة في مجتمع مستقر ، بحيث يجاري هذا الاندفاع ظروف الثورة وخططها في المدى البعيد •

ولطبيعة القيادة في الثورة شأن خطير ، لان القيادة وفيها تتمثل الزعامة ووحدة الشعب والحكومة ، تمارس بالضرورة صلاحيـات ان لم تكن مطلقة فلابد ان تكون واسعة المدى الى ابعـد الحـدود ، وتتمتع الزعامة فيها بوجه خاص ، بثقة الشعب بها بحيث يرفعها الى مقام البطولة الوطنية وقد يغالى فيرفعها الى درجة التقديس • وفي هذه الحالة

يتوقف مصيرها ، الزعامة والقيادة معاً ، ومصير الثورة كذلك ، على مبلغ احتفاظها بطابعها الشعبي ، ومغالبتها شعور العظمة الذي يسوق صاحبه الى الاستبداد ، اذ يركبه الغرور ويستهويه الشعور بالعظمة ، فيستهين بالشعب ولا يسترشد برأي ، وينزع الى فرض ارادته على المنظمات السياسية والشعبية بدلا من التعاون معها ، حتى يؤول الحكم الى طغيان يفسد الزعامة ويودي بها وبالثورة معا .

والواقع ان أعظم زعماء الثورات الذين وفقوا في أداء واجبهم ، هم الذين تملكهم الشعور باداء رسالتهم فلم تستعبدهم مطامحهم الشخصية ولم يبعدهم تقدير الشعب لهم وتعلقه بهم عن جماهيره ، فاحتفظوا بطابع الفرد العادي أو المواطن العادي في مظهرهم وفي أداء رسالتهم وبقوا مرآة صافية تعكس ارادة الشعب ورسالة الثورة .

- ٢ -

كان لاحداث فجر الرابع عشر من تموز (١٩٥٨) وقع هزّ العالم كله ، فأثار الهلع في جانب وأنعش الامل في جانب آخر • ذلك ان الضربة الصاعقة التي انزلهـا الجيش العـراقي بقيـادة الزعيـم عبدالكريم قاسم ، تلك الضربة المباغتة والموقوتة التي لم يسبق لها مثيل في الجرأة والاحكام ، اجتثت النظام الملكي في العراق من جذوره في ساعة وبعض الساعة ، وكانت الاشارة للشعب بأن ينطلق في استجابته الاجماعية الفعالة لنداء قائد الثورة ، فيشل جهاز الحكم السابق ويفقده كل قدرة على المقاومة •

ان احـداث فجـر الرابع عشـر من تموز كانت في الواقع ، الدليل القاطع بان ثورة عارمة قد انطلقت في هذا الجزء من المعمورة ،

وان هذه الثورة سوف يكون لها أثر ظاهر في الوضع العالمي ، ونتائج بعيدة المدى في الشرق الادنى عامة وفي الشرق العربي على الخصوص .
فما من ثورة في التاريخ تجلت بوادرها وتعين اتجاهها مثلما تجلت في بضع ساعات ، طبيعة ثورة الرابع عشر من تموز ، بانطلاق الشعب في جميع انحاء العراق ، بطبقاته وأجناسه ، برجاله ونسائه وشيبه وشبانه ، مندمجاً بالقوات المسلحة ، في اجهازه على النظام المباد ، وكأنه على موعد ، مؤيداً قائد الجيش وزعيم الثورة في اعلان الارادة العامة بتحرير البلاد من الاستعمار ، وتصفية الجهاز الذي كان واجهة لهذا الاستعمار ، وازالة معالم الاقطاع الذى كان ركيزة للاستعمار ومبعث الوهن في الكيان العام .

فقد كان النظام الذي اعلنت الثورة زواله من صنع الاستعمار ، كان في الواقع وجهاً من وجوه الاستعمار ، ستر بقناع من المظاهر الخداعة ؛ لكن الشعب العراقي رفع القناع واكتشف حقيقة ذلك النظام منذ زمان ، وناهضه ما استطاع الى ذلك سبيلاً . كان استعماراً بشعاً قام على الارهاب والاستهتار بالقيم الانسانية ، واستند الى الاقطاع ـ أبعد النظم تأخراً عن موكب الحضارة ، والى احط اصناف الحكم ، الى الجواسيس والعملاء الذين اسطنعهم الاستعمار فخلق منهم ملوكاً وامراء ووجهاء وساسة . كان وضعاً فرض على الشعب ، مجموع الشعب ، وما من سند له غير الاستعمار وحلفاء الاستعمار من الاقطاعيين وزمرة كان الفساد الذي أشاعه الاستعمار يعود عليها بالنفع الرخيص .
اما الشعب ، فلاحيه وعماله ومثقفيه وسائر الكسبة واصحاب المهن من

فئاته وافراده ورجال الصناعة والاعمال من ابنائه ، فكانوا جميعا يعانون ويلات الفساد ويحملون اعباءه من غير طائل • ولذلك انهار هذا الوضع الذى انقطعت كل صلة له بالشعب ، انهار انهياراً كلياً بالضربة الموقوتة التي فوجيء بها في فجر الرابع عشر من تموز ، من دون ان يبدي مقاومة ، وبات في بضع ساعات وكأنه خبر من الاخبار •

كان واضحاً من بوادر ثورة الرابع عشر من تموز ، انها لم تكن انقلاباً ، ولم تكن فتنة وما كانت عصياناً ولا تمرداً ، وانما هي فاتحة ثورة بكل ما تنطوي عليه الثورة من معنى • ولعل الجدير بنا ان نرجع هنا الى قول قائد الثورة وزعيمها ، وهو يكشف عن حقيقتها ويشير الى ما ترمي الى تحقيقه :

« ان ثورتنا انما هي ثورة شعب بأسره ، اشترك فيها الجيش بكامله ، وساهم فيها ابناء البلاد المخلصون في ارجاء العراق كافة ، وما هي الا امتداد لثورات الشعب المتوالية على الطغيان عبر التاريخ ••• »(١)•

« وها هي ثورة العراق قد انبثقت في ١٤ تموز ١٩٥٨ فأطاحت بركائز الاستعمار ••• »(١) •

« ان قوتكم وقوة الجيش قد اندمجت واصبحت قوة هائلة »(٢) •

« ان الثورة المجيدة التي انبثقت من ارادة الشعب يوم ١٤ تموز انما هي ثورة سياسية واجتماعية »(٣) •

---

(١) من خطاب بمناسبة مرور شهر واحد على الثورة •

(٢) من كلمة في وفد النجف ، في ١ ايلول ١٩٥٨ •

(٣) من خطاب بمناسبة اعلان الاصلاح الزراعي في ٣٠ ايلول ١٩٥٨

« لقد استجاب الجيش لروح الشعب الذي هو منه فنهض بثورة ١٤ تموز الجبارة واندمجت جموع الشعب بقوة الجيش فور اعلان الثورة لتحطيم الظلم والطغيان »(٤) ·

« وقد انفجر الشعب والجيش في يوم واحد وحطم تلك الاصنام التي كانت تسير في ركاب الاجنبي ··· وعلينا في الوقت الحاضر ·· ان نسعى جاهدين لاستئصال جذور هذا الاجنبي وعملائه » ·

« ان هذا الشعب قد عاش مدة طويلة في كبت وحرمان ، حرمان من الحرية ، وحرمان من رغد العيش ، فثروة البلاد كانت مسروقة ومبددة لصالح المستعمر ولصالح الاجنبي · وكل شيء في هذا البلد كان مستثمراً للاجنبي »(٥) ·

« لقد وجدت السبيل لقبر الاستعمار في هذه البلاد والبلاد المجاورة ··· هو انطلاق الشعب نحو الحرية بكامله ··· فلو تمكن الاستعمار من القضاء على فرد أو أفراد مهما كان عددهم بالمئات أو الالوف فانه سوف لن يتمكن من ان يقضي على شعب بكامله · هذا هو الطريق لقبر الاستعمار · ولقد اجهزنا عليه في ١٤ تموز ونحن في الوقت الحاضر نستأصل جذوره (٦) ·

« النقطة الاساسية التي اشتغلنا من أجلها هي تحرير الشعب وانطلاقه ، فاذا الشعب انطلق بحريته فلا يمكن للأيدي الاجنبية والعصاة والمستعمرين التغلب عليه » ·

« اننا قمنا بثورة وسنقضي على القديم البالي ونحل محله كل حديث » ·

---

(٤) من خطاب يوم الجيش في ٦ كانون الثاني ١٩٥٩ ·

(٥) من خطاب في حفلة تخرج دورة ضباط الاحتياط الثالثة عشر في ٢-٣-١٩٥٩ ·

(٦) من خطاب في عيد الربيع في ٢٣ مارت ١٩٥٩ ·

« لقد حطمنا الاستعمار وحطمنا الملكيـة الفاسدة وعالجنا الاقطاع » •

« ان البـلاد انطلقت من الجمـود وسارت نحـو التحرر »(٧) •

« اننا تمكنا من التغلب على فكرة الجمود • ان فكرة الجمود هي التي تقيد الشعب • وان الدول الاستعمارية والعناصر الرجعية دائماً تسعى الى الجمود وترسخ اركانه في البلاد ليحل الدمار بأهلها ••• وتمكنا من جعل الشعب ينتقل من هذه المرحلة الى مرحلة أخرى وهي التطور •

ان الجمود هو الذي يقيد الشعب وهو الذي يأخذ على ايديهم ويفرق صفوفهم • ان العمل المثمر ••• والسير في ركب الحرية يتطلب الخلاص من الجمود »(٨) •

كان المستعمر هو المالك ••• وبعد الثـورة ملكنـا حريتنا •

« لقد قضينا على نوري السعيد وطغمته وقضينا على الحكم البائد لأنهم لم يكونوا اصدقاء للدول الاجنبية وانما كانوا عملاء ••• استهانوا بحرية الشعب وطغوا وتمردوا عليه وخانوا هذه التربة » •

« سنكون في الطليعة وسنساهم في قيادة الدول في منطقة الشرق الأوسط في سبيل الحرية والتحرر »(٩) •

« اننا قد حطمنا الحواجز التي كانت تقيـدنا نحو الحرية • ونسعى لتحطيم كل قيد يقيد هـذا الشعب • وسوف لن ننسى ان نجهز على كل قيد آخر » •

« اننا نسعى دوما جاهدين ، وانتـم معنـا ، وابناء الشعب كلهم معنا لتحطيم كـل قيـد يقيـد ابنـاء العراق ••• » •

---

(٧) من كلمة في وفد الموصل في ٢٥ مارت ١٩٥٩ •

(٨) من خطاب في المؤتمر الثاني لانصار السلام في ٤ نيسان ١٩٥٩ •

(٩) من خطاب في مؤتمر المهندسين في ٤ حزيران ١٩٥٩ •

« سوف نسعى لرفع مشعل الحرية في هذه البلاد ليشع منها النور الى البلاد المجاورة ونسير في ركب الحرية مع العالم المتحرر والأصدقاء والاخوان المكافحين في كل مكان من المعمورة ٠

٠٠٠ الحرية ٠٠٠ ثمرة هذه الثورة المجيدة حطمت قواعد الاستعمار »(١٠) ٠

« اننا نسير في ثورة صامتة دوماً ، فمتى ما صادفنا عقداً فان هذه لثورة تتأجج فتقضي على هذه العقد وتزيلها من الطريق ، تزيل كافة العقبات التي تصادفها وتحطمها ٠٠٠ فينجو هذا الشعب بفضل الثورة المتأججة » ٠

« الاستعمار سحقناه في أول يوم الثورة ، اما ذيول الاستعمار واتباعه فهم يسحقون تباعاً بعد ان سحق الاستعمار ٠٠٠ وهم الاذناب السائرون في ركاب الاستعمار والرجعية والاستغلال وما شاكلهم »(١١) ٠

« ان الجيش قام بواجبه في ثورة ١٤ تموز واندمج في جموع الشعب وجماهير الشعب في حركة وطنية رائعة سوف تذكر في التاريخ ٠٠٠ انها حركة ٠٠٠ لغرض ٠٠٠ التحرر والحرية وللقضاء على المستعمرين وعوامل الاستعمار » ٠

« المكسب الاول القضاء على الاستعمار والمكاسب الاخرى القضاء على اتباع الاستعمار » ٠

« لقد حطمنا النظام الملكي ٠٠٠ وحطمنا الاستعمار والسائرين في ركابه ٠٠٠ »(١٢) ٠

---

(١٠) من خطاب في مؤتمر الشبيبة في ١١ حزيران ١٩٥٩ ٠

(١١) من خطاب في لواء المشاة الخامس والعشرين في ١٥ حزيران ١٩٥٩ ٠

(١٢) من كلمة للضباط في أول يوم من أيام عيد الاضحى ٠

« ان الجيش خطا خطوة جبارة وحطم رؤوس الاستعمار في اليوم الاول من ثورة ١٤ تموز واندمج مع اخوانه ابناء الشعب »(١٣) •

« ان هدفي هو الاستعمار • فانني سأحطم آخر عقبة من عقبات الاستعمار وانني استند عليكم » •

« اننا سوف نقضي على المستعمر وهدفنا أولا وآخراً هو الاستعمار فمتى ما قضينا على الاستعمار نقضي على الرجعية ونقضي على الخونة ونقضي على الجواسيس ونقضي على الاقطاع ، فالبلية هو الاستعمار وعليكم بتحطيم الاستعمار ••• اننا نسعى لسحق رأس الحية ••• »(١٤)•

ومن كل هذا ، يتبين بجلاء ان الزعيم عبدالكريم قاسم ، عندما أنزل ضربته القاصمة « بركائز الاستعمار » في فجر الرابع عشر من تموز ، كان يعرف ما يريد وكان على يقين بان الشعب بجميع طبقاته سيكون الى جانبه فيما يريد • كان يعرف ان الاستعمار هو بيت الداء ، وكان واثقا من قوة الروح الوطنية الصادقة المتأججة التي لا تحجم عن التضحية والتفاني في سبيل تحرير الوطن من الاستعمار واذناب الاستعمار •

وانني اذ أقول ذلك ، انما أقوله عن يقين ، فلقد درست بامعان كل خطب الزعيم عبدالكريم وكل احاديثه في مدى عام وخرجت بهذا الرأي : ان الرجل كان على يقين من بيت الداء وانه يؤمن بالشعب

---

(١٣) من كلمة اخرى مع نواب ضباط وضباط صف ومراتب الجيش العراقي في اليوم عينه •

(١٤) من خطاب في مؤتمر اتحاد النقابات في ٨ تموز ١٩٥٩ •

ايمانا مطلقا ، وانه امتاز بذلك عن سواه من الوطنيين • فان جميع الافراد الذين عملوا في الحقل الوطني عن صدق واخلاص كانوا يعرفون ان الاستعمار هو بيت الداء لكنهم لم يكونوا يؤمنون بقدرة هذا الشعب الجبار الذكي الشديد الحساسية ، على مثل هذه الاستجابة الفورية الاجماعية لداعي تحرير الوطن • اما الزعيم عبدالكريم فقد عرف الداء كما عرفه سواه ، ولكنه عرف الشعب ايضا وآمن به بل وأحبه حباً لا حدود له • وهذا هو السر في نجاح خطته المباغتة الجريئة المبنية على الثقة بالشعب • وهذا هو سر عظمة الرجل وسر عظمة الشعب • فليس من المألوف ان يخرج رجل غير معروف للشعب ويصبح في ساعات ملء الافواه وملء الاسماع وملء القلوب • وليس من المألوف أصلاً ان يجمع الشعب على رجل هذا الاجماع غير المشروط وبهذه السرعة ، لاسيما شعب العراق الذي خبر الزعامات فتأصلت فيه النزعة الى الشك والنفرة من الانقياد للآحاد •

وفي المقتبسات من خطب الزعيم عبدالكريم التي وردت في الصفحات السابقة ، يستطيع القاريء ان يتبين بجلاء ، ان الثورة التي بدت بوادرها في فجر الرابع عشر من تموز هي في جوهرها ثورة وطنية تحررية هدفها « تحطيم قواعد الاستعمار » واستئصال جذوره • وهي لهذا وبحكم الضرورة ثورة تقدمية ضد « الجمود »(١٥) وللانتقال بالشعب « الى مرحلة أخرى » • وهي بعد هذا انطلاقة

---

(١٥) « ان التطور يغلب الجمود • وان الجمود هو الذي يقهر حتماً • فعلينا ان نتطور ونساير الزمن » • في المؤتمر النسائي ٨-٣-١٩٥٩ •

« شعب بأسره » رافعاً « مشعل الحرية في هذه البلاد ليشع منها النور الى البلاد المجاورة » في ثورة « متأججة » و « مستمرة »[16] •

وثورة اصيلة تستهدف اقتلاع جذور الاستعمار وتحرير الشعب تكون بالضرورة ثورة « ديمقراطية » تدين بالقومية « المتحررة » التي تعترف بحق القوميات الاخرى في المساواة في حدود الوطن • وهذا هو بالفعل ما اعلنه البيان الاول للثورة الذي جاء فيه :

« ان الحكم يجب ان يعهد الى حكومة تنبثق من الشعب وتعمل بوحي منه وهذا لا يتم الا بتأليف جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية الكاملة وترتبط برباط الاخوة مع الدول العربية ••• » •

وهو ما تأيد في مقدمة الدستور الموقت التي جاء فيها :

« لما كانت الحركة الوطنية ••• في ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ تهدف الى تحقيق سيادة الشعب والعمل على منع اغتصابها وضمان حقوق المواطنين وصيانتها ، ولما كان الحكم السابق ••• قائماً على أساس الفساد السياسي اذ اغتصب السلطة أفراد حكموا البلاد على خلاف ارادة الاكثرية وضد مصلحة الشعب •••

فاننا باسم الشعب نعلن سقوط القانون الاساسي »•

واعلن الدستور الموقت ان : « الشعب مصدر السلطات » و « ان العراق جزء من الامة العربية » وان « العرب والاكراد شركاء

---

(١٦) « ما زلنا في اول الطريق وان ثورتنا مستمرة » من خطبة يوم الجيش في ٦-١-١٩٥٩ • « اننا سنستمر في طريق الحرية مهما وضع امامنا من عراقيل • ومن واجبنا ان نساعد على التطور والاندماج معه » • من حديث في مقابلة مع مدراء التربية في ٢٦-٢-١٩٥٩ •

في هذا الوطن » وان المواطنين « سواسية أمام القانون في الحقوق والواجبات العامة ولا يجوز التميز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الاصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة » •

وأيد الزعيم عبدالكريم الديمقراطية والقومية التحررية في الكثير من خطبه واحاديثه ، فقال في خطاب مؤتمر المحامين في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٥٨ :

« اننا نستند على أبناء الشعب ، فالشعب مصدر القوة ••• وان القرار الأخير للشعب ولن نكون حفنة أفراد تتلاعب بمقدرات الشعب كما تلاعب رجال العهد الماضي ••• اننا نرجع في كل تصرفاتنا الى الشعب والشعب هو الذي يقرر ••• » •

وقال في خطابه في مؤتمر الشبيبة في ١١ حزيران سنة ١٩٥٩ :

« لقد سبق لي وتشرفت بالحضور في مؤتمر رابطة الدفاع عن حقوق المرأة ومؤتمر اتحاد الطلاب والعمال والفلاحين والنقابات الاخرى وكلها عوامل كانت سبباً في ارساء بناء الحرية وبناء أسس الديمقراطية الصحيحة في هذا البلد » •

وقال في حديث له مع مدراء التربية في العراق في ٢٦ شباط ١٩٥٩ :

« سنحطم الأصنام التي تقيد الحرية لأن عهد الحكم الفردي قد ولى وانقضى وان الفكرة الجماعية هي التي تحكم الشعوب وان الشعوب تحكم نفسها بنفسها ••• » وان « ••• هدفنا اعطاء الشعب الحرية الكاملة في العمل والتفكير لأن الشعب هو السيد المطلق ونحن نفنى في سبيله ••• » •

وقال في مؤتمر المحامين العرب أيضا منوها بفكرة القومية المتحررة والتضامن العربي :

« اننا لسنا دعاة محلية ولا اقليمية وانما ندعو الى فكرة سامية هي التعاون والتكافل والتضامن ومد يد المعونة الى كل بلد عربي في أي مكان » .

« اننا نتعاون مع اخواننا الدول العربية بدون مقابل وعلى أساس المنفعة الخاصة لشعب تلك الدول العربية .

« سيبقى العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن وستبقى حقوقهم وواجباتهم مضمونة في هذه البلاد ضمن الوحدة الوطنية » .

وقال في خطابه في يوم الجيش في ٦ كانون الثاني ١٩٥٩ :

« لقد قامت ثورة ١٤ تموز لتحرير شعب العراق من الاستبداد والفساد وفك الاغلال التي كانت تقيد الحرية وتؤخر التقدم وتعزل شعب العراق عن الامة العربية وهو جزء لا يتجزأ منها » .

« وانني اعلن للملأ بان الشعب هو القوة التي تملي ارادتها في كل زمان ومكان واننا في الجمهورية العراقية نحتمي بهذه القوة واننا نحمي هذه القوة ... » .

* * *

ان ثورة الرابع عشر من تموز هي اذاً ، ثورة وطنية تحررية ضد الاستعمار ؛ وثورة تقدمية ضد الاقطاع تهدف الى الانتقال بالمجتمع الى مرحلة جديدة ؛ وهي ثورة شعبية تستند الى الشعب ، وتعتمد طريق الديمقراطية والقومية المتحررة ؛ وهي بهذا كله تنطوي على تحول أساسي وجذري في الحياة العامة وتمثل انقطاعاً لاستمرار

وضع قائم وانطلاقاً لانشاء عهد جديد ، وتستلزم بالضرورة تبدلاً في طبيعة الحكم وفي اسلوبه وعناصره ، وفي نظام الاقتصاد ووجهته وفيما يتصل بذلك وينجم عنه من تحوير في مفاهيم الحياة العامة وفي مدلول هذه المفاهيم ومقاييسها .

* * *

وعلى الرغم من ان الجمهورية العراقيـة التي انبثقت من ثورة الرابع عشر من تموز لم يمض عليها غير عام وبعض العام ، فان انجازاتها الرائعة في خلال هذه الفترة القصيرة ، وما انبعث عنها من مظاهر الحياة العامة ونشاطاتها ، وما لازم ذلك من تنظيم الشعب في منظمات ديمقراطية لجميع فئاته ، واطلاق الحريات العامة بما فيها حرية الرأي والتعبير والاعتقاد ، وضمور النزعات المنبثقة من الدعايات الاستعمارية وعناصر الرجعية من تعصب طائفي أو ديني أو عنصري أو محلي ، وانصهار الشعب بجميع قومياته وطوائفه في مد منطلق متحرر ، كل ذلك لا يترك مجالا للشك في طبيعة الثورة التي انبثقت منها هذه الجمهورية .

لقد كان هدف الثورة الاول ـ وهو الهدف الرئيسي ـ الاجهاز على الاستعمار واقتلاع جذوره ، وكان ما انجز في هذا المضمار انجازا حاسماً ورائعاً في الوقت عينه ؛ ففي صبيحة اليوم المبارك ، يوم الرابع عشر من تموز ، حطمت رؤوس الخيانة التي اعتمدها الاستعمار لتنفيذ سياسته ؛ وفي الخامس عشر من تموز انسحب العراق من الاتحاد الهاشمي الذي كان أحبولة من أحابيل الاستعمار ومؤامرة استعمارية رجعية ضد القومية العربية المتحررة وضد شعبي العراق والاردن ؛

وفي مدى بضعة شهور تحرر العراق من اتفاقية الامن المتبادل مع الولايات المتحدة ، ومن ميثاق بغداد الذي يمثل تحالف صنائع الاستعمار مع الدول الاستعمارية لخنق شعوب منطقة الشرق الادنى برمتها واتخاذها جسرا للعدوان على حرية الشعوب وجعلها حلقة في سلسلة الاحلاف العدوانية من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي ؛ وبالغاء اتفاقية نيسان ١٩٥٤ التي يسرت لبريطانيا ان تجعل من الحبانية قاعدة من أعظم القواعد العسكرية في ستراتيجية الخطط الاستعمارية ، تحرر العراق نهائياً من ارتباطاته السياسية بمعسكر الاستعمار •

ولم تقتصر انجازات الثورة خلال عامها الاول في مضمار الاجهاز على الاستعمار ، على الاجراءات السلبية فحسب ، وانما حققت انجازات أخرى ايجابية لا تقل عن تلك الانجازات خطورة وروعة • فقد حطمت الاطار الذي حصر الشعب في حدود منطقة النفوذ الغربية واتبعت سياسة الحياد الايجابي بفحواها الصادق السليم ، فأنشأت العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والتجارية والثقافية مع جميع الدول الصديقة دون تفريق ، لا سيما مع حكومات العالم الاشتراكي وهي التي بادرت فور قيام الجمهورية العراقية الى الاعتراف بها واستبشرت بتحرر الشعب العراقي وساندت حكومة الثورة أدبياً وأبدت الاستعداد الصادق لمد يد المعونة غير المشروطة اليها ، فأعادت العلاقات الدبلوماسية مع جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، واعترفت بجمهورية الصين الشعبية وأسست معها العلاقات الدبلوماسية لاول مرة ، وفعلت مثل ذلك مع بقية دول هذا العالم المتحرر الذي يؤيد حرية الشعوب ويؤيد السلام •

وفي حقل الحريات العامة ، ألغت جميع الاجراءات والوسائل الذي اتخذها النظام المباد وسيلة لخنق الحريات واشاعة الارهاب ، فألغت قرار اسقاط الجنسية العراقية ، وأعلنت العفو عن المسجونين السياسيين ، ورفعت رقابة الشرطة عن المحكومين بقضايا سياسية ، وألغت القرارات الصادرة بفصل الطلاب والاساتذة والمدرسين والموظفين والمستخدمين لاسباب سياسية ، وأعادت المبعدين الى أوطانهم ، ومنحت الامتيازات للصحف واطلقت لها مجال الحرية دون قيد ، وثمنت بلسان بطل الثورة وقائدها نضال الاحزاب الوطنية في سبيل التحرر الوطني ، وأصدرت قانون تشكيل منظمات شعبية مثل المقاومة الشعبية ورابطة الدفاع عن حقوق المرأة ، وشجعت تشكيل نقابات العمال وجمعيات الفلاحين واتحاد الطلبة واتحاد الشبيبة الديمقراطي والمنظمات المهنية . ورعى قائد الثورة ورئيس الحكومة وزعيم الشعب جميع المؤتمرات التي عقدت في خلال العام الاول والقى فيها الخطب التوجيهية ، فحضر المؤتمر الرابع للمحامين العرب ومؤتمر اتحاد الطلبة ومؤتمر رابطة الدفاع عن حقوق المرأة ومؤتمر الفلاحين ومؤتمر نقابة المهندسين ومؤتمر اتحاد الشبيبة الديمقراطي والمؤتمر التأسيسي الاول لاتحاد نقابات العمال . وتميز العام الاول من حياة الجمهورية بالمظاهرات والمسيرات الشعبية التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ العراق بحيث أثارت دهشة المشاهدين الاجانب حتى من البلاد التي شهدت اعظم الثورات كالاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ، فقد قارب عدد المتظاهرين والمشتركين في المسيرات في يوم الجيش ويوم العمال المليون

مواطن في بغداد من دون رقيب ومن دون ان يحدث ما يعكر على الجماهير أفراحها وانطلاقها بعد السجن الرهيب •

وفي حقل الاقتصاد ، حررت حكومة الثورة الاقتصاد الوطني من القيود التي ربطت اقتصاده بالعالم الغربي ارتباطا كليا بان فتحت أبواب المتاجرة والتعامل الحر مع جميع الدول على أساس المصالح المتبادلة ، وعقدت مع دول العالم الاشتراكي اتفاقيات التبادل التجاري والتعاون الفني والاقتصادي ، وكان من اعظم انجازاتها عقد الاتفاقية الاقتصادية مع الاتحاد السوفياتي لانشاء خمسة وعشرين مشروعا صناعيا وابداء المساعدة الاقتصادية والفنية في تحقيق الاصلاح الزراعي وفي الزراعة والري والتحري عن المعادن والنفط وتنظيم المواصلات • ومن ابرز مظاهر الانجازات الاقتصادية دون ريب ، تشريع قانون الاصلاح الزراعي ووضعه موضع التنفيذ • ويمكن تلخيص الانجازات الاقتصادية في تحرير البلاد من عبث الشركات الاجنبية وتصفية الاقطاع ووضع أسس سليمة للتصنيع وتشجيع توظيف رؤوس الاموال الوطنية في الصناعة ، وخروج العراق من المنطقة الاسترلينية وتحرير الدينار العراقي من ارتباطه بالپاون الاسترليني ، وهي من دون شك دلائل تصميم لتحول اقتصادي ينقل البلاد الى مرحلة جديدة •

وهذا بمجموعه بالاضافة الى ما جرى من تحوير في سياسة المعارف وفي توجيه البعثات توجيهاً حراً والجهود المبذولة فعلاً في تعديل مناهج التعليم وتأسيس الجامعة العراقية ، وما لابد ان ينشأ عن ذلك من انطلاق القابليات الانشائية والابداع الفكري والعملي ، وما

يتبعه بالضرورة من ارتقاء في مستوى الاخلاق والمفاهيم العامة ، يعطينا صورة واضحة عن الجانب العملي والواقعي في فحوى ثورة الرابع عشر من تموز من حيث انها ثورة تنطوي على تبدل ايجابي شامل في محتوى النظام الاجتماعي وأهدافه وفيمن يحكم فيه .

* * *

ان مصير أية ثورة انما يتقرر بعنصرين اساسيين : هما النظرية وخطة العمل أو خطة السير . والنظريـة السليمة لايـة ثورة ، هي النظرية المستمدة من واقع الحياة العامة وظروفها الداخلية والخارجية ، ومقتضيات تطورها ، وتفجير الطاقة المتوافرة لتحقيق هذا التطور ، وبتعبير آخر تعبأة الجمهور الذي يسند هذا التطور ويستجيب للثورة ويؤيدها باعتبار انها تحقق مصالحه . وخطة السير التي تضمن النصر لاية ثورة ، هي الخطة التي تنسجم مع طبيعة الحياة العامة وظروفها ومقتضياتها ووجهة تطورها وتنتفع بالطاقة التي تستطيع تفجيرها أعظم الانتفاع .

ان هذه الامور قد يكون من اليسير صياغتها في جمل محبوكة ووضعها في اطارات محددة . لكن الحقيقـة ، ان اكتشاف النظـرية الصحيحة لوضع اجتماعي معين ، بظروفه الخاصة وعوامله المتشابكة ، والقوى الفعالة فيه ، والمؤثرات الخارجية والتيارات الفكرية المتفاعلة في داخله ومن حوله ، وتقدير امكانياته والطاقات التي يمكن أن تفجر فيه في حالات معينة أو في مواعيد موقوتة ، ان هذه كلها تجعل أمر التوصل الى نظارية يغلب فيها جانب الصواب ، من أصعب الامور وأكثرهـا تعقيدا . واعظم من ذلك تعقيـدا وضع الخطـة التي تمثـل الجانب

العملي لهذه النظرية وتكملها ، فانه حتى اذا كان في المستطاع وضع النظرية باعتبار انها فرضية قيد الاختبار ، فان الخطة لا يمكن ان يفرر منها الا اتجاهها العام الذي ينسجم مع مجمل النظرية ، لان هذه الخطة بشكلها العملي انما تقرر في مراحل ، في ميدان العمل وغمرة الكفاح وعلى محك التجارب المريرة والاخطاء والهزائم والانتصارات •

وصحيح ان هنالك مباديء عامة وخطوطاً واضحة وقواعد مجربة لتطور المجتمعات ، الا ان ذلك لا يمكن اعتماده كلياً في حل المعضلة التي تجابه من يتصدى لمعالجة مشكلة مجتمع معين له ظروفه الخاصة وخصائصه المميزة ، وان كان في هذه المباديء والقواعد ما يعين وما يصح ان يكون دليلاً يهدي الى الصواب • فالثورة ليست حركة في فضاء خال ، ولا هي معركة واقعة واحدة ، وانما هي سلسلة متصلة من المعارك الجانبية والحاسمة بين جانبين متطاحنين وقوة كل جانب قابلة للنقص أو الزيادة • ان القائد يدخل المعركة وهو يعرف مبدئياً خطته والقوة التي تحت تصرفه ويقدر على وجه التقريب ، خطة العدو وقوته ومواقعها ؛ اما في الثورة فان العامل الحاسم هو العامل المجهول وغير المستقر ، باعتبار انه على الرغم من المصالح العامة التي قد تكون موضع الاتفاق وتكوّن خطوط الوحدة العامة ، فان هنالك في كل مجتمع مجموعات من الناس تربطها مصالح تناقض مصالح المجموعات الاخرى أو لا تنسجم معها ، فتخلق في داخل الوحدة الوطنية تناقضات شديدة الحساسية وشديد التأثير ؛ وفي الوقت عينه يكون هنالك في كل مجتمع عناصر مائعة لا يستهان بها قد تنحاز الى جانب الثورة أو تنحاز الى

الجانب الآخر ، ومصير الثورة كثيراً ما يتقرر بالتغلب على المتناقضات في داخل الوحدة الوطنية او بتغلب المتناقضات وتفكك الوحدة الوطنية ، كما يتأثر بتحول العناصر المائعة والخطط التي تحملها على ان تقف بجانب الثورة أو تقف ضدها •

وعلى أساس هذه الملاحظات ، يمكننا ان نتساءل عما اذا كانت ثورة الرابع عشر من تموز تستند الى نظرية ، ومن ثم نحاول ان نتحقق عن مبلغ الصواب في هذه النظرية ، ونستجلي بعد ذلك خطة السير أو خطة العمل التي تمثل الجانب الواقعي لهذه النظرية ، من سيرة الثورة في عامها الاول •

والواقع اننا توصلنا في الصفحات السابقة ، استنادا الى ما استشهدنا به من خطب الزعيم عبدالكريم قاسم واحاديثه ، الى المبادىء الاساسية التي تقوم عليها ثورة الرابع عشر من تموز ، باعتبار انها ثورة وطنية تحررية ضد الاستعمار ، وانها ثورة تقدمية ضد الاقطاع والرجعية ، وثورة شعبية تعتمد الديمقراطية والقومية المتحررة ؛ وهذه المبادىء تنطوي اجمالاً على المخطط العام لنظرية الثورة وخطتها • وعلى هذا نستطيع ان نفترض مبدئياً ان ثورة الرابع عشر من تموز تقوم على نظرية وان لها خطة • ويبقى علينا ان نحلل هذه النظرية ونناقشها في ضوء القواعد العامة من جهة وفي ضوء طبيعة المجتمع العراقي وظروفه من جهة أخرى ؛ على ان نعود بعد ذلك الى مناقشة الجانب التطبيقي لهذه النظرية ، وهو خطة السير أو خطة العمل •

* * *

يكاد لا يخلو خطاب من خطب الزعيم عبدالكريم قاسم أو حديث من أحاديثه ، كما ظهر لنا فيما أوردناه من هذه الخطب والاحاديث من الاشـارة الى الاسـتعمار ، باعتبـار انه بيت الـداء وحجـر الـزاوية ومبعث التـأخر الـذي كـابد الشعب العـراقي ويلاته ، والمقوّم الحقيقي للوضع البائد ، والسر في وجود الاقطـاع وانتعاش الرجعية . وقد عبر عن ذلك احسن تعبير اذ قال : ان « ... هدفنا أولاً وآخراً هو الاستعمار ، فمتى ما قضينا على الاستعمار نقضي على الرجعيـة ونقضي على الخـونة ونقضي على الجواسيس ونقضي على الاقطاع ، فالبلية هو الاستعمار وعليكم بتحطيم الاستعمار ... اننا نسعى لسحق رأس الحيـة ... »[17] . فالاستعمار اذاً ، هو العـدو الاساسي ـ العدو رقم ١ ـ الذي تستهدف الثورة القضاء عليه ، وعلى ذلك تكون مكافحة الاستعمار ، الاساس الذي تقوم عليه نظرية ثورة الرابع عشر من تموز .

ولاجل ان نتبين طبيعة الاستعمار بالنسبة للعراق ، علينا ان نتذكر الحقائق الآتية وهي : ان الاستعمار البريطاني استهدف السيطرة على العراق منذ أواسط القرن التاسع عشر ؛ وانه أراد هـذه السـيطرة لاسباب ستراتيجية بالدرجة الاولى ، لاهمية موقع العراق المتوسط بين ايران وتركيا والجزيرة العربية والخليج الفارسي ، وهي البلاد التي تمر بها الطرق المؤدية الى الهند . ومنذ اكتشاف النفط في ايران وتوقع وجوده في العراق ، واتخاذه بديلاً للفحم الحجري في وقود الاسطول

(١٧) من خطاب في مؤتمر اتحاد النقابات في ٨ تموز ١٩٥٩ .

البريطاني في أوائل القرن العشرين ، اصبحت أهمية العراق بالنسبة للاستعمار البريطاني مزدوجة : ستراتيجية وعسكرية ، باعتبار ان الاسطول كان ما يزال الوسيلة الاساسية لحماية المصالح البريطانية فيما وراء البحار • وبعد ان اصبح النفط مجالاً حيوياً لاستثمار رؤوس الاموال منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، اضيف عنصر جديد لاول مرة ، هو عنصر الاستثمار الرأسمالي ، لاهداف الاستعمار البريطاني في العراق • وعلى الرغم من ان استثمار رؤوس الاموال في شركات النفط تحول الى احتكار عالمي للرأسمالية الدولية ، غير ان سيطرة الاستعمار البريطاني على العراق وضعت في يده وسيلة فعالة في المساومات الدولية • وقد زادت هذه الوسيلة خطورة بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما اصبح العراق القلعة الرئيسية في ستراتيجية الغرب ، للسيطرة على شعوب الشرق الاوسط ولتهديد الاتحاد السوفياتي • وبات العراق حجر الزاوية في سياسة بريطانية الاستعمارية ، بعد ان اضطرت الى التخلي عن القسم الاعظم من مناطق نفوذها أمام الزحف الامريكي الجارف الذي سيطر على شمال افريقيه ومصر وضمن السيطرة على فلسطين بقيام اسرائيل وبسط نفوذه في لبنان والجزيرة العربية وايران وتركيا ولم يبق لها غير العراق والاردن وراح يضيق عليها الخناق فيهما ايضاً • ان السيطرة على العراق ابقت لبريطانيا الركيزة الوحيدة التي تستطيع بها ان تشغل مقاما مرموقا على مائدة الاستعمار فيما يتعلق في الشرق الاوسط ، لخطورة موقع العراق الجغرافي من الناحية الستراتيجية ، ولوجود قاعدة الحبانية التي تتمتع بمركز فريد ، اذ تقع

على بعد ما يقرب من ستمائة ميل من باكو والسويس وحيفا ، وهي لذلك تعتبر القاعدة المثالية للطيران البعيد المدى في الاتجاهات الثلاثة ، ولتقديم الحماية للطائرات المقاتلة ، ولعمليات قاذفات القنابل ؛ وهي بعد هذا تمتاز بانها تتمتع بقدر من الامان من قواعد قاذفات القنابل الروسية ، لا تتمتع بها القواعد التي انشأت في تركيا • واحتفاظ بريطانيا بسيطرتها على العراق لا يدعم مقامها في الاحتكار العالمي للبترول فقط بل انه ييسر لها كذلك، ان تتخذ منه مركزاً يعزز نفوذها في الخليج الفارسي حتى عدن ، وييسر لشركات النفط البريطانية ان تفوز بالنصيب الاوفر من نفط هذه المنطقة •

انا نريد بهذه الخلاصة ان نخرج منها الى ايضاح الامور الآتية وهي أولاً ، ان الاستعمار البريطاني في العراق ، لم يكن ، فيما عدا ما يتعلق باستغلال النفط ، يهدف مبدئياً الى استثمار رؤوس الاموال فيه أو ان يتخذ منه سوقاً يصرف فيه منتجات صنائعه ، وذلك لقلة سكان العراق التي لم توفر الايدي العاملة الرخيصة فتغري أصحاب رؤوس الاموال الاجانب بانشاء الصناعات كما هو الحال في الهند وفي غيرها من البلدان المزدحمة بالنفوس ، ولا توفر فيه سوق كبيرة للبضائع للسبب عينه • وبهذا الاعتبار كان الاستعمار في العراق وبالاً عليه ، أكثر مما كان على غيره ، فقد أبقاه خراباً خالياً من الصناعة ، فلا تكونت فيه طبقة وسطى ذات شأن ولا نشأت فيه صناعة ولا جرى فيه اعمار يستحق الذكر أو تحسين جدي في طرق الري أو الزراعة أو وسائل المواصلات؛ أبقاه قلعة تحمي مصالح الاستعمار فحسب ، بحكم « وطني »

زائف سداه الاقطاع ولحمته الارهاب ، حكماً يقوم « بملك والف شيخ » كما قال احد البريطانيين متهكماً ، احتفظ فيه الانكليز بكل مصالحهم مقابل التنازل عن مظاهر الاستعمار الخارجية • ولم تتبدل نظرة الاستعمار الى العراق ولا تبدل فحوى خططه وأسلوبه حتى بعد ان دوّل نفوذه في الشرق الاوسط واحتلت الولايات المتحدة مركز الزعامة فيه •

ثانياً ، ان ثورة الرابع عشر من تموز ، وان انزلت بالاستعمار ، في العراق بوجه خاص وفي الشرق الاوسط بوجه عام ، ضربة زلزلت كيانه وشبهت بسقوط الباستيل وكادت ان تفقده صوابه حتى أوشك ان ينزلق الى التدخل المسلح لولا خوفه من اندلاع نار حرب عالمية لم يعدّ لها العدة ، وقد جاءت الضربة مفاجئة وحاسمة وجاء موقف الاتحاد السوفياتي حازماً وفعالاً بقيامه حالاً بمناورات عسكرية هائلة على حدود تركيا وايران ، الامر الذي اضطر معه الاستعمار الى التراجع وهو يكظم غيضه ويتدبر مصيره ؛ رغم هذا كله فان مركز العراق في مخطط الاستعمار العالمي وفي مخطط امبراطورية النفط العالمية هو من الخطورة بحيث لا يصح معه مطلقاً التقليل من خطر الاستعمار وامكانياته أو الافتراض ان النصر النهائي قد تحقق وان المعركة انتهت • فالمعركة في الواقع ما زالت في بدايتها ، وسوف تكون من دون شك معركة طويلة الامد تستلزم منا منتهى اليقظة ومنتهى الحيطة ومنتهى التركيز •

ثالثاً ، ان الاستعمار لم يحكم هذه البلاد بقوة النار والحديد وانما انشأ فيها جهازاً محلياً من أهلها ، غرر بهم واضلهم سواء

السبيل ، فاغدق عليهم النعم وربط مصالحهم بمصالحه ونمى في نفوسهم روح النفرة من الشعب والخوف منه وأفسد ضمائرهم وصور لهم ان مصيرهم معلق بمصيره • وهؤلاء لا يقتصر عددهم على رؤوس النظام السابق الذي قضت الثورة عليهم في فجر الرابع عشر من تموز ، وانما يقوّمون عدداً كبيراً ممن استخدمهم الاستعمار رأساً وممن استخدمهم عن طريق الحكم البائد ، يؤلفون « رتلاً خامساً » ، من الجواسيس والعملاء والمنتفعين والوسطاء والاذناب، من جميع الطبقات والهيئات ومن مختلف الاديان والقوميات ، عظيم الخطر لانتشاره وتستره وراء شتى الواجهات الدينية والقومية والسياسية ، مما يسر له التضليل ، وبذر بذور التفرقة وشق الصفوف ، واثارة نعرات التعصب ، واشاعة الفوضى ، وترويج الشائعات المختلقة والافكار الرجعية ، والباس دسائس الاستعمار واضاليله لبوساً يخفي حقيقتها ويؤلب غير الواعين من ابناء الشعب حولها ويضلل عقول السذج من الناس •

رابعاً ، ان الاستعمار في الوقت الذي انشأ هذا الجهاز في داخل البلاد ودربه في مدى اربعين سنة ، انشأ في الوقت عينه مثيلاً له في جميع البلدان المجاورة ، وقوّم نظماً تسير في فلكه ، وان ذلك الجهاز وهذه النظم تنظر الى ثورة الرابع عشر من تموز النظرة عينها ، وتحمل تجاهها العداء عينه ، وترى في مشعل التحرر الذي تحمله هذه الثورة ناراً تحرقها ، ولن تتأخر عن الكيد لها والتعاون مع حلفائها في داخل العراق ، في وضع العراقيل في طريقها أو التطويح بالنظام الذي انشأته ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا •

من هذا نستطيع ان نخرج بهذه النتيجة وهي : ان الاستعمار هو العقبة الرئيسية في طريق التحرر الوطني والتطور الاجتماعي ، وبزواله تزول ذيوله وتوابعه التي تقوم به ، يزول الاقطاع وتنتقل البلاد الى مرحلة جديدة في سلم الارتقاء ، وتذوي الرجعية وتصير الى الزوال فيتسع امام الشعب مجال التطور • وهذا ما عناه الزعيم عبدالكريم حين قال : « فالاستعمار رأس الحية ، اما البقية فاذنابها ، واذنابها لا شيء » • والواقع ان منطق التطور الاجتماعي ، الذي تستند اليه كل ثورة ، يقرر بأنه حيثما يكون الاستعمار قائماً فان طابع الثورة التي تقوم لمناهضته يكون بحكم الضرورة طابعاً وطنياً تحررياً هدفه الاول ازالة معالم الاستعمار • وقد وجدنا مما مرّ بحثه ان نجاح ثورة الرابع عشر من تموز في تحقيق هدفها الاول ، بانتصارها في معركتها ضد الاستعمار ، يعني بالضرورة أيضاً انتصارها على الاقطاع ، باعتبار انه لا يقوم على أساس اجتماعي وانما الاستعمار هو مبعث وجوده •

والحقيقة ان الاقطاع في العراق ، نظام أوجده الاستعمار وعزز مقامه وليس له جذور تاريخية عميقة في حياة المجتمع العراقي • فقد كان النظام العشائري هو السائد في عهد الدولة العثمانية وهو يختلف اختلافاً جوهرياً عن الاقطاع • وكانت عشائر العراق ـ لا سيما في الفرات ـ عنصراً وطنياً ناوء السلطة العثمانية ومثلّ دوراً رئيسياً في الثورة العراقية الاولى ، وكانت في حساب الاستعمار ، تعتبر العدو الاول بين القوى الوطنية المناوئة لسلطانه • ولهذا بنى الاستعمار سياسته في العراق على أساس قلب الحياة العشائرية الى اقطاعيات استشرى فيها

الفساد وتقطعت بها روابط الصلة بين ابناء العشيرة الواحدة وبين الرئيس الغائب الذي ترك الامر لممثليه يعبثون بحياة الفلاحين ، واعتمد على السلطة في تأييد نفوذه وتعزيز مقامه . فما يسمى بالاقطاع في العراق هو في جوهره من خلق الاستعمار ولا مفر من ان يزول بزواله .

على ان امر زوال الاقطاع ليس بالامر الميسور كما يبدو لاول وهلة ، فالاقطاع في الواقع لا يزول بزوال « الالف الشيخ » ، باعتبار انه نظام اصبحت له جذور اقتصادية وله شأنه في الاقتصاد الوطني ، وباعتبار انه لا يزول ليترك فراغاً وانما يزول بحلول ما يشغل هذا الفراغ ؛ شأنه في ذلك شأن الاستعمار الذي لا يمكن ان يزول بمجرد الغاء القيود الاستعمارية التي تناقض السيادة الوطنية ، وانما يزول بتحقق البديل في حكم وطني يقوم بالاستقلال السياسي التام وبالاقتصاد المستقل ويعتمد على الشعب ويحقق مصالحه ويضمن له السيادة الكاملة . فالقول اذاً ، بزوال الاستعمار ، انما يقصد به في الحقيقة ، ان الثورة يسرت للشعب مجال الحرية التي هيأت الاسباب لازالة معالم الاستعمار بتقويم الكيان السياسي والاقتصادي الذي يحل في محله . وكذلك القول بزوال الاقطاع ، من حيث انه نظام اقتصادي في جوهره وله مظهره السياسي الخاص ، يعني ان الثورة سوف تيسر السبيل الى ازالة معالمه بتحقيق الاصلاح الزراعي وتحرير الفلاح ونشوء الصناعة الوطنية وازدهارها ، ويعني من الجهة الاخرى ان زواله مرتبط بزوال الاستعمار التي قومه بان فرض التأخر الزراعي ومنع ازدهار الصناعة الوطنية .

وشأن الرجعية شأن الاقطاع ، ذلك لان الرجعية التي قومها العهد العثماني لم تجد سبيلاً لتكييف نفسها للاحتلال البريطاني بالمقدار الذي ييسر لها البقاء ، لبعد الشقة بينها وبينه من جهة ، ولان الاستعمار البريطاني فضل العناصر الخام من الجماعات والفئات التي لم تنل عطف العثمانيين وتحمل لهم الكراهية من جهة أخرى ، فكان ان ذوت هذه الرجعية العتيقة وذابت في المجتمع الجديد ، وحلت في محلها رجعية جديدة وطيدة الصلة ، في رؤوسها على الاقل ، بالاستعمار الذي غذاها ووجها لخدمة اغراضه وقامت مصالحها في ظله ، وبذلك ارتبط مصيرها بمصيره .

ويتألف معسكر الرجعية في العراق من شتات من كل الطبقات والفئات والقوميات يتجمع في فريقين رئيسيين : الاول ، يضم العناصر التي كانت ذات حضوة ونفوذ في العهد البائد ، فتيسر لها ان تستغل الفساد المتفشي لجر المغانم ونيل المكاسب والاثراء بالكسب غير المشروع . والثاني ، وهو الاغلبية فقد مال اليها لضعف ايمانه بالثورة وخوفه من ضياع ما في حوزته وفي مخطط مطامحه وآماله ، ولعجزه عن تفهم مظاهر العهد الجديد التي تخالف ما الفه ، ولجهله منطق الثورة ، بحيث اصبح غير قادر على مواكبة سيرها وفهم مقتضياتها وما تنطوي عليه من تحول نحو الافضل ، فراح يرى في نشاطاتها المتفجرة مبعث خوف وقلق وعدم استقرار ، وفي أسلوبها في تصريف الشؤون العامة خروجاً على المألوف ، وفي المد الشعبي دلائل الفوضى وضياع النظام .

والفريق الأول ، شديد الخطر ، مغالٍ في تعصبه ضد الثورة وفي كراهيته وعدائه لها ، مندفع اندفاع الوحش الجريح الذي سدت في وجهه سبل النجاة ، لا يتورع عن ارتكاب الجرائم واعمال التخريب وعن التآمر مع الاجنبي الطامع وجر البلاد الى الكوارث • اما الفريق الثاني ، ويضم الانتهازيين والمتخاذلين والفرديين والمنافقين فانه يكوّن جيشاً احتياطياً لاعداء الثورة وخطره يكمن في ميوعته وفي انه التربة الخصبة لنشاط الجواسيس والعملاء والمتآمرين من جهة ولانه من الجهة الاخرى العدو المندس غير المكشوف في جهاز الثورة ومنظماتها وفي دوائر الدولة ومؤسساتها ومبعث الضعف فيها ، وهو في الوقت عينه حلقة الصلة بين غلاة الرجعيين والجناح اليميني من انصار الثورة ، وهو يميل مع الثورة اذا رجحت كفتها ، ويميل الى جانب اعدائها اذا رجحت كفتهم • ولكنه من الجهة الاخرى يكون بطبيعته الانتهازية الفردية مستداً لتكييف نفسه لظروف الثورة والذوبان فيها اذا تحقق لها النصر •

والى هنا نكون قد انتهينا من تحليل عنصرين من عناصر نظرية ثورة الرابع عشر من تموز كما وضعها الزعيم عبدالكريم قاسم في خطبه وأحاديثه : العنصر الاول هو ، انها ثورة وطنية تحررية ضد الاستعمار ؛ والعنصر الثاني هو انها ثورة تقدمية ضد الاقطاع والرجعية ؛ ونكون كذلك قد تحققنا من صحة النظرية الى هذا الحد • وبقي علينا ان نناقش العنصر الثالث وهو انها ثورة شعبية « تخدم مجموع الشعب » عن طريق الديمقراطية والقومية المتحررة •

وارى من الضروري قبل ان ابدأ بحث هذا العنصر من نظرية ثورة الرابع عشر من تموز ، ان اشير الى انه ذو جانبين ، الاول يتعلق بفحوى النظرية ، والآخر يتعلق بخطة العمل ؛ وسأقتصر هنا على بحث الجانب الاول . وكذلك أرى ان الفت نظر القاريء الى ان بحث هذا العنصر يجرنا بالضرورة الى موضوع على جانب عظيم من الخطورة باعتبار انه كان مدار جدل فكري منذ نيف ومائة وخمسين عاماً وما يزال ، وهو موضوع صراع الطبقات . وقد يكون من الصواب أيضاً ان اشير هنا الى انني من المعتقدين بصحة نظرية الصراع الطبقي وبانها النظرية الوحيدة التي نستطيع ان نفسر بها فحوى التطور الاجتماعي ووجهته وطبيعة النظم الاجتماعية . ولم تعد هذه النظرية في الوقت الحاضر أساساً لمذهب الاشتراكية والشيوعية فحسب ، وانما اعترف بصحتها كثير من رجال الاجتماع والفكر في العالم الرأسمالي . وقليل هم الذين ينكرون اليوم نظرية صراع الطبقات ، وان اختلفوا في تقدير مدى أثرها في تقويم نظام الحكم وفي التطور الاجتماعي والظواهر الاجتماعية وفي امكان تحقيق التوافق بين المصالح المتناقضة لهذه الطبقات في المجتمع الواحد .

والاعتراف بوجود الطبقات ضرورة تستلزمه طبيعة الثورات الديمقراطية الشعبية التي تهدف الى خدمة مجموع الشعب على أساس الديمقراطية والقومية المتحررة ، لتمييزها عن انظمة تفرض سيطرة طبقة واحدة ، أو حزباً واحداً يمثل الطبقة الحاكمة ويكون في مرحلة النضال ضد الاستبداد والاقطاع والاستعمار ، على التحقيق ، صنيعة

الاحتكاريين وكبار رجال المال وحليفاً للاستعمار ضد الشعب عند اقتضاء مصالحهم، وان اتخذ « الشعبية » واجهة له • ولان الاقرار بوجود الطبقات معناه بالضرورة ، في ثورة شعبية ، افساح مجال الحرية لهذه الطبقات لتحقق وجودها الكامل وتعبر عن ارادتها وتحمي مصالحها وتساهم مساهمة فعالة في تحقيق أهداف الثورة وصيانتها • وليس من ريب ، ان الزعيم عبدالكريم قاسم ، عندما اعلن ان ثورة الرابع عشر من تموز هي ثورة تخدم مجموع الشعب ، انما عنى الثورة الشعبية التي تعمل لخدمة مجموع الشعب بطريق الديمقراطية والحرية ، كما يبدو جلياً في كثير من خطبه وأحاديثه التي اوردنا مقتبسات منها في مستهل هذا القسم •

وقد يكون من السهل مبدئياً قبول فكرة « الثورة الشعبية » ، باعتبار ان الثورة التي تواجه قوة اجنبية دخيلة تستلزم بالضرورة اتحاد الشعب لطرد الدخيل الذي يفسد الحياة العامة لجميع الطبقات • الا ان نظرية الثورة كما استخلصتها من خطب الزعيم عبدالكريم قاسم واحاديثه ، لا تقتصر على طرد المستعمر فحسب ، وانما هي ، كما جاء في البيان الاول ، تستهدف تأسيس « جمهورية شعبية » يعهد الحكم فيها الى « حكومة تنبثق من الشعب وتعمل بوحي منه » • كما ان الزعيم عبدالكريم قاسم قد أكد ، في كثير من خطبه واحاديثه ، ان الثورة انما جاءت « لتخدم مجموع الشعب » ؛ وقال في اعلان قانون الاصلاح الزراعي ، انها « ثورة سياسية واجتماعية معاً » •

وبالنظر الى ان هذا الموضوع يمثل أخطر جانب في نظرية الثورة وهو الاساس الذي سوف تستند اليه جميع نظمها السياسية والاجتماعية ،

ويتعين به اتجاه التنظيم السياسي والاجتماعي ونشاطاته ، فانه موضوع جدير بالبحث والمناقشة من قبل جميع الاطراف التي يعنيها الامر • وسأبدأ من جانبي بمناقشة الموضوع على اعتبار ان الصراع بين الطبقات حقيقة ثابتة •

والثورة الشعبية أو التحول الذي يقوم في مرحلة تاريخية معينة ، لخدمة مجموع الشعب بطبقاته العديدة ، لم يعد حقيقة علمية وتاريخية ثابتة فحسب ، وانما هو اليوم أمراً واقعاً مشهوداً • والاسس العلمية التي يستند اليها هذا التحول أو الثورة « الشعبية » الى نظرية « لينين » التى اوضح فيها مستلزمات الكفاح ضد الاستبداد والاقطاع في روسية القيصرية حيث اقتضى التحول في تلك المرحلة التاريخية بواسطة « الثورة الديمقراطية » ان تتعاون البرجوازية الصغيرة وطبقتي العمال والفلاحين للقيام بوجه الاستبداد القيصري الاقطاعي ، ولانشاء نظام ديمقراطي متحرر يتسع فيه المجال للتقدم الصناعي ولممارسة الحريات الديمقراطية ، ويقوم على ضمان المصالح المشتركة للطبقات التي تساهم فيه وتؤيده •

وبتفاقم خطر الفاشية في أوربا وتهديدها السلام العالمي ، برزت فكرة « الشعبية » مرة أخرى بدافع الواقع والضرورة في محتوى الدعوة الى « الجبهة الشعبية المتحدة » التي تقدم بها ديمتروف الى مؤتمر الاممية الشيوعي العالمي السابع في ٢٥ تموز ١٩٣٥ ، حيث عبر عن الضرورة الى تعاون الشيوعيين والاشتراكين الديمقراطيين وسائر الاحزاب والمنظمات الديمقراطية في جبهة متحدة لمقاومة

الفاشية وحماية الديمقراطية في البلاد المستقلة ؛ وعن الضرورة الى مثل هذا التعاون بين البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة والعمال والفلاحين وسائر المنظمات الوطنية الديمقراطية لمكافحة الاستعمار وتحقيق الاستقلال والديمقراطية في البلاد المستعمرة وشبه المستعمرة .

ومما قاله في هذا الخصوص في خطاب تقديم مشروعه الذي أقره المؤتمر : « اننا أعداء كل فكرة تحاول تشويه الخطة الشيوعية ومسخها واظهارها كشيء جامد لا يتبدل ، ويمكن تطبيقه في كل ظرف واستعماله في كل مكان . اننا نريد ان ننظر الى الامور دائماً كما هي تماماً ، وان نعالجها كما يقتضي ان تعالج في ظروف المكان والزمان ، فلا نعمل في كل حين وفي كل مكان وفق نمط جامد . اذ يجب ان لا يغرب عن بالنا ان وضعية الشيوعيين لا يمكن ان تكون واحدة في ظروف مختلفة » . وهذا البيان وان كان في الواقع ، ايضاحا وتوكيداً لرأي لينين الذي مرت الاشارة اليه ، الا انه كان دعوة صريحة الى مزيد من المرونة والى التحرر من الجمود والتزمت ، والى اتباع سبل ووسائل تناسب المكان والزمان وتنسجم مع التركيب الاجتماعي وظروفه ، من جهة ؛ وكان من الجهة الاخرى استجابة لضرورات التعاون والتضامن بين طبقة الكادحين من العمال والفلاحين وبين البرجوازية الديمقراطية من أجل صيانة الديمقراطية والوقوف بوجه الفاشية . وعلى اساس هذا الايضاح الذي أيد عنصر التطور والمرونة في مراعاة الظروف الاجتماعية الخاصة ، قامت انظمة الحكم في الجمهوريات الشعبية في أوربا الشرقية .

وكانت النظرية بهذا المعنى قد طبقت فعلاً في الصين ، متمثلة بتحالف الكومنتانك والحزب الشيوعي الصيني بعد الحرب العالمية الاولى . وذلك بعد ان اكتشف صن يات سن وجوه الخطأ في حركته الوطنية التي اتبعت أسلوب الديمقراطية الغربية غير الثورية ، وتأثر بثورة اكتوبر فأعجب بها ودرسها ووجد فيها الدليل الى تصحيح اخطاء ثورة الصين الوطنية والسير بها الى طريق النجاح . فقرر التعاون مع الحزب الشيوعي الصيني ، واقترح على حزب الكومنتانك قبول « السياسات الثلاث الرئيسية » لتكون في صلب منهاجه وهي « التحالف مع روسية السوفياتية ، والتحالف مع الحزب الشيوعي الصيسي ، وتأييد حركة العمال والفلاحين ورفع مستواهم » . وبذلك تغير محتوى ثورة الصين الوطنية الى ثورة شعبية لا تهدف الى استبدال حكام صينيين مستبدين وخاضعين الى النفوذ الاجنبي بحكام آخرين ليسوا خيراً منهم ، وانما ترمي الى تحرير الشعب الصيني وقومياته من الاستبداد ومن جميع أشكال السيطرة الاستعمارية ، وتنشىء حكما ديمقراطياً لا يقوم ـ كما قال صن يات سن ـ على أساس « النظام الديمقراطي المزعوم للامم الحديثة المختلفة[١٨] التي تحتكره البرجوازية وتجعل منه أداة لاضطهاد الشعب ... وانما على أساس الديمقراطية التي يجب ان لا تكون ملكية خاصة للاقلية » . والواقع أن قبول « السياسات الثلاث الرئيسية » احدث تبدلاً أساسياً في أسلوب الحركة الوطنية في الصين وفي وجهتها ؛ فبالتحالف مع روسية السوفياتية انتفى التناقض الذي انطوت

---

(١٨) ويقصد الديمقراطية الغربية أو الديمقراطية الليبرالية .

عليه سياستها ، سياسة التعاون مع الاستعمار للقضاء على الاستعمار ، وخرجت من نطاق النفوذ الاستعماري الذي كان يكيد لها ويدبر المؤامرات ضدها تحت ستار التعاون المزيف ؛ وبتحالفها مع الحزب الشيوعي تغيرت طبيعتها من حركة وطنية مبلبلة الى حركة ثورية ذات نهج قويم ؛ وبتأييدها حركة العمال والفلاحين انطلقت من نطاق البرجوازية المترددة المتخاذلة الى ثورة شعبية توافر لها في ظل الحرية معين لا ينضب من حيويات العمال والفلاحين الثورية المتدفقة البناءة •
واعتبرت ثورة الصين ، منذ ذلك الحين ، نموذجاً لثورات الشعوب التي تنشد الحرية وتعتمد على تعاون وثيق بين طبقات الشعب الوطنية •
واعتبر صن يات سن الرائد الشريف للثورات الشعبية التي تهدف الى خدمة مجموع الشعب •

ومن رأي ماوتسي تونك ان الاشكال المختلفة للدولة ، على أساس الطبيعة الطبقية للسلطة السياسية تتمثل في ثلاثة أنواع رئيسية وهي : دكتاتورية البرجوازية (أو ما يسمى عرفاً بالديمقراطية الغربية أو الديمقراطية الليبرالية) ؛ ودكتاتورية البروليتارية أو الديمقراطية السوفياتية التي تقوم في الاتحاد السوفياتي ؛ والدكتاتورية العامة لطبقات ثورية عديدة ، وهي التي تقوم بالديمقراطية المركزية في تمثيل شعبي حر لجميع الطبقات والفئات الاجتماعية التي تساند الثورة • والديمقراطية المركزية أو الديمقراطية الشعبية يمكن ان تتغير من مرحلة الى مرحلة ، وقد تمارس في الجوهر مهام دكتاتورية البروليتاريا حسب تطور المرحلة ، كما هو الواقع في الديمقراطيات الشعبية في

أوربا الشرقية وفي آسية في الوقت الحاضر . ومن هذا يمكن ان نستدل على ان دكتاتورية البروليتاريا ليس من الضروري ان تقوم على انفراد الحزب الشيوعي وحده بالقيام بمهامها ، وان جرى هذا في الاتحاد السوفياتي وحده بسبب ظروف تاريخية خاصة ، وانما يمكن ان تقوم على أساس تحالف عدد من الاحزاب في جبهة واحدة ، كما هو قائم الان في الديمقراطيات الشعبية في أوربا الشرقية وفي آسيا .

والديمقراطية المركزية ـ كما اسماها ماوتسي تونك ـ تفرض دكتاتوريتها على جميع اعداء الثورة من انصار الاستعمار والاقطاعيين والرجعيين وفي الوقت عينه تفسح مجال الحرية الكاملة لانصار الثورة من البرجوازيين الوطنيين والبرجوازية الصغيرة والعمال والفلاحين . ونظام من هذا القبيل يقوم اليوم في الصين الشعبية بزعامة الحزب الشيوعي الصيني . ويقوم نظام على نسق آخر باسم الديمقراطية الموجهة في اندونيسيا ، يستند الى جبهة وطنية يساهم فيها الحزب الشيوعي الاندونيسي وبزعامة ثورية غير شيوعية . والدكتاتورية العامة لطبقات ثورية عديدة على أساس الديمقراطية المركزية ، في رأي ماوتسي تونك ، هو النظام الملائم للبلاد التي تواجه الاستعمار أو التي تكافح الاستعمار وتهدف الى بناء ديمقراطية شعبية تتمثل بها جميع طبقات الشعب الثورية تمثيلاً حقيقياً .

وربما كان نظام الديمقراطية الموجهة ـ أو نظاماً قريباً منه ، هو ما عناه الزعيم عبدالكريم قاسم بالجمهورية الشعبية التي يعهد الحكم فيها الى « حكومة تنبثق من الشعب وتعمل بوحي منه » ، وبتأكيده ان

الثورة انما جاءت « لخدمة مجموع الشعب » . ومهما يكن الامر ، فان ثورة شعبية لا يمكن ان تخرج عن المخطط التي يقوم على فسح مجال الحرية الكاملة لانصار الثورة من البرجوازيين الوطنيين والبرجوازية الصغيرة والعمال والفلاحين وضمان تعاون المنظمات السياسية التي تمثل هذه الطبقات وتنسيق نشاطاتها في اطار الوحدة الوطنية ؛ وفي الوقت عينه ، شل نشاط أعداء الثورة من انصار الاستعمار والاقطاعيين والرجعيين واتباع سياسة الحزم واليقظة تجاههم .

وتعبير « الثورة الشعبية » في رأيي ، أكثر انطباقا على طبيعة ثورات هذا العصر ، لا سيما ثورات آسيا وافريقيا ، من تعبير « الثورة البرجوازية » ، المتمثلة بالثورة الفرنسية وثورات القرن التاسع عشر ، لان تلك الثورات قامت والبرجوازية تمثل الاتجاه التقدمي ضد الاقطاع والرجعية ، بينما ثورات القرن العشرين ، في آسيا وافريقيا على الخصوص ، تمثل ثورات وطنية تقوم بها طبقات عديدة ضد الرأسمالية الدولية المتمثلة بالاستعمار وفي عصر الاشتراكية التي تناقض الاستعمار وتمثل جانب التقدم ؛ فضلا عن ان وجود الطبقة العاملة ، باعتبارها عاملاً فعالاً في هذه الثورات بالنسبة للبرجوازية الوطنية التي قد تميل الى التخاذل والردة ومساومة الاستعمار ، يسدي على ثورات هذا القرن طابعا يميزها عن ثورات القرن التاسع عشر على وجه التحقيق .

* * *

على انه لا يمكن البت في طبيعة ثورة الرابع عشر من تموز ،

من حيث انها ثورة تخدم مصالح مجمـــوع الشعب ، قبل النظر في تركيب المجتمع العراقي ومقام الطبقات فيه، وفي امكان تعاون هذه الطبقات واتفاقها في جبهة وطنية متحدة ، لادارة شؤون الدولة وتحقيق أهداف الثورة وخدمة مجموع الشعب في ظل « جمهورية شعبية » تنبثق من الشعب وتعمل بوحي منه .

ولقـد رأينـا ان الاقطـاع الذي قومـه الاستعمار في ظل العهد البائد ، قام بطبقة مصطنعة صغيرة طفيلية متفسخة لا شأن لها من الناحية الايجابية في كيان المجتمع العراقي ، وانما وجودها كان مرتبطاً بوجود الاستعمار وقائم به ، فاذا زال زالت هي بالتبعية . وهذه الطبقة بحكم طبيعتها ووجودها طبقة معادية للثورة ، وقد حكمت الثورة عليها بالزوال . والى جانب هذه الطبقة الاقطاعية يقف عدد من كبار العملاء الذين يرجع وجودهم أيضا الى الاستعمار ويقوم كيانهم بوجوده ، وقد أثروا وامتد نفوذهم في ظله وتكشفوا بزوال هذا الظل ، وهؤلاء شأنهم شأن رجال الاقطاع لا مقام لهم في مجتمع متحرر .

اما جمهور العملاء والجواسيس ، فعلى الرغم من انهم يؤلفون « رتلاً خامساً » معادياً للثـورة ، مندساً في كيـان الحكـومة وفي خارجها ، في كثير من المرافق العامة وفي الصحافة والمنظمات السياسية والاجتماعية ، ينفذ خطط الاستعمار في نشر بذور التفرقة وبلبلة الافكار واشاعة عوامل القلق ، ويتحين الفرص للقيام باعمال الارهاب والتخريب والفوضى وزعزعة ثقة الشعب بحكومة الثورة واقلاق الراحة العامة ، فان أمره يجب أن يعالج بالحزم واليقظة وتنمية الوعي العام ، بحيث

لا يجد هذا الفريق الضال له منفذا لتحقيق مآرب الاستعمار ولا سبيلا للبقاء غير الرجوع عن غيه واصلاح حاله والانضمام الى بني قومه ٠ وليس من ريب في ان نشاط هذا الفريق ومضيه في طريق الضلال واتساع مجال العمل امامه ، يتوقف على ما توفق الثورة الى تحقيقه من انتصارات ومكاسب ، كما انه رهن بقوة المد الثوري الذي يسد في وجهه مجالات العمل ، حتى يغلبه اليأس ويستسلم للامر الواقع ٠

وباستبعادنا الاقطاعيين وكبار العملاء وغلاة الرجعية باعتبارهم العناصر المعادية للثورة من حيث الاساس واسقاطنا من الحساب كذلك ، جمهور العملاء والجواسيس وسواد الرجعية ، وهذه العناصر بجملتها تؤلف جزءاً لا يعبأ به من حيث العدد ، وان كان خطره في الحقيقة لا يتناسب مع صغر عدده ، بسبب تغلغل النفوذ الاجنبي ووجود القوى الرجعية في محيطنا الخارجي ، فان مجموع الشعب يتكون بهذا الاعتبار ، من جمهور الطبقة الوسطى ومن الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين ٠

وفي رأيي ، ان الطبقة الوسطى في العراق تختلف عن الطبقة الوسطى بالمعنى المألوف ؛ فهي بمحتواها الغالب تتألف من البرجوازية الصغيرة ، من اصحاب العقار والتجار وارباب المهن والمثقفين وموظفي الدولة ومستخدميها ؛ وشأن كبار رجال الصناعة والرأسماليين في تكوينها وطبيعتها محدود جداً ، لتأخر الصناعة في العراق كما سبق ان بينّا(٥) ، ولجسامة رأسمال الدولة من عوائد النفط بالنسبة لما هو في حوزة هذه الفئة الصغيرة ٠ اذ بينما بلغت عوائد النفط السنوية في عام ١٩٥٨ قرابة

---

(٥) راجع ص ٤٩ .

ثمانين مليون دينار ، ويقدر ان تبلغ قرابة مائة مليون دينار في السنة الحالية وفي السنة التي تليها ، وقد تبلغ مائة وخمسين مليون دينار بعد سنة ١٩٦٢ ، فان مجموع استثمار الرأسمال الاهلي الموظف سنويا في الصناعة قد لا يتجاوز خمسة عشر مليون دينار على أعظم تقدير . وكبار رجال المال والصناعة في العراق لم يكونوا في يوم من الايام رأسماليين بالمعنى المعروف ، وانما ظروف الصناعة اجبرتهم ان يكونوا ملاكين وتجاراً وزراعاً في الوقت عينه ؛ وليس فيهم من وظف رأسماله بجملته في الصناعة ، وليس فيهم على الارجح من ربط مصالحه بالرأسمالية الدولية ، الا بضعة أفراد مرجع كيانهم وثرائهم يعود برمته الى الاستعمار وقد يصح ان نسميهم « أثرياء الاستعمار » ؛ وانما رجال المال والصناعة ، ليس لهم مصلحة اقتصادية ايجابية تربطهم بالاستعمار ، بل الاستعمار عدوهم ، باعتبار ان مجال استثمارهم محدود بالسوق المحلية والاستعمار ينافسهم فيها . ولذلك فان هذه الفئة مثل بقية عناصر الطبقة المتوسطة لا يصح اعتبارها من حيث الاصل غير وطنية ، طالما مصلحتها مناقضة لمصلحة الاستعمار ، وذلك على الرغم مما تبديه من القلق على مستقبلها والتطير من موجة التحرر التي اطلقتها ثورة الرابع عشر من تموز ، وخصوصاً من حركة العمال التي اندفعت تطالب بزيادة الاجور وتحسين شروط العمل ، فان هذا القلق والتطير مرده في الواقع ذهنية تملكتها المخاوف والشكوك ، متأثرة بالدعايات الخارجية وبالعسر الذي واجهته الصناعة الوطنية ، بسبب الظروف الناشئة عن التحول السياسي والاجتماعي والاقتصادي الناجم

عن الثورة ، وهو بجملته من الامور الزائلة •

وان تحقيق اهداف الثورة بزوال الاستعمار والاقطاع ، وارتفاع مستوى المعيشة بتحسن حالة العمال وتحرير الفلاحين بانجاز الاصلاح الزراعي ، سوف ينشيء وضعاً يتسع فيه المجال للصناعة الوطنية بان تنمو وتزدهر بدرجة لا يتصورها رجال الصناعة الواجمين المتشائمين • فمما لا ريب فيه ، ان اتساع مجال التصريف وتزايد القدرة على الشراء ، بالنسبة للصناعة الوطنية ، أجدى من رخص الايدي العاملة ، لانه يفسح المجال لزيادة طاقة الانتاج فيخفض من تكاليفه ويرفع معدل الربح بما يغطى الزيادة في أجور العمال ويفيض •

اما بقية عناصر الطبقة الوسطى ، من جمهور التجار وارباب المهن والصناع ، فعلى الرغم مما سوف يتيحه لهم تحسن الاحوال على الوجه الذي نوهنا به فيوسع لهم مجال العمل والكسب ويغمرهم بخيراته ، فقد كانوا دائماً من رواد الحركة الوطنية ورواد القومية المتحررة • وانهم ليدركون تمام الادراك ما سوف تحققه لهم ثورة الرابع عشر من تموز ، من سعة المجال ، وما سوف يتوافر لهم من الخير في ظل جمهورية شعبية متحررة ترعى مصلحة الوطن وتعمل في سبيل تقدمه• وما يصح قوله في هذه المراتب من ابناء الطبقة الوسطى ، يصح الى حد ابعد في المثقفين وموظفي الدولة ومستخدميها ، فليس من ريب ان غالبيتهم ، بالاضافة الى وعيها الوطني الصادق الرصين ، ترجح نظاماً تسوده الحرية ، ويتسع فيه مجال التقدم على أساس الكفاءة ، ويزيل عنها كابوس الذل والعبودية الذي خيم عليها في ظل العهد المباد •

ومن هنا نستطيع ان نتلمس الحقيقة الخطيرة التي يرتكز عليها عنصر « الشعبية » في نظرية الثورة • فان الطبقة الوسطى ، اذا لم يكن في مصلحتها ان تربط مصيرها بالاستعمار ، واذا كان تحسين حالة العمل وتحقيق الاصلاح الزراعي ، وهما المطلبان الرئيسيان في المرحلة الحاضرة من بين مطاليب طبقة العمال والفلاحين ، يمكن تعويضهما بالنسبة لاقل عناصر هذه الطبقة تأييداً للثورة ، بما يتسع لها من مجال الاستثمار ، بنتيجة الارتفاع في مستوى معيشة سائر الطبقات والفئات، بحيث يعود عليها بمزيد من الربح ، بالرغم من تزايد اجور العمال ؛ فان هذا معناه التقاء مصالحها بمصلحة العمال والفلاحين وهم أغلبية الشعب ؛ ومعناه بعبارة أخرى ، ان اسباب الاتفاق ونقاط الالتقاء بين مصالح الطبقة الوسطى ومصالح طبقتي العمال والفلاحين أقوى من عوامل التناقض واسباب الخلاف •

ومع ذلك ، فان الموضوع في واقعه ليس بهذه البساطة ، ذلك ان الطبقة الوسطى خصوصاً في مراتبها العليا ، وهي أقلية ، ستبقى دائماً شديدة الحساسية تساورها الشكوك والمخاوف من كل ظاهرة من مظاهر المد الثوري الذي يتيح لجمهور الشعب مزيداً من الحرية ومزيداً من الانطلاق ، لاسيما في هذه المرحلة التاريخية التي توشك فيها الاشتراكية ان تكسب المعركة الدائرة بينها وبين الرأسمالية الدولية • فليس من شك ان ثورة شعبية يعنيها بالدرجة الاولى ان تحقق للمعدمين من الفلاحين نصيبا من اسباب العيش يرفع مستوى حياتهم الى الحد الادنى على الاقل ، لتجعل منهم مواطنين قادرين على القيام بواجبات

المواطنة ؛ ويعنيها أيضاً ان تحسن حياة الطبقة العاملة وترفع من مقامها وتتيح لها ان تمارس الحرية وتنشط في ميدان الحياة العامة ؛ ليس من شك ان ثورة شعبية تريد ان تحقق كل هذا ، سوف تثير في الطبقة الوسطى ، خصوصاً في مراتبها العليا ، الاحساس بان مكاسبها أقل نسبياً من مكاسب غيرها ، وان مصالحها في الميزان ، في حين يكون الفلاحون والعمال قد ارتفعوا من العدم ولم يصيبهم شيء غير المكاسب .

وعلى ذلك ، فان عوامل الوفاق بين الطبقات الثلاث التي يتكون منها الشعب وتؤيد الثورة ، وان كانت متوفرة من حيث الاساس ، وأقوى من عوامل التناقض ، فان عوامل التناقض ستبقى تفعل فعلها في اقلاق التوازن العام ، وسيبقى هنالك ، لهذا السبب ، مجال للاستعمار والرجعية لان يزعزعا الوفاق بتجاهل خطوط الالتقاء والتأكيد على عوامل الخلاف . وانه لهذا السبب ، يترتب على المثقفين من ابناء الطبقة الوسطى على الخصوص ، ان يؤدوا رسالتهم الوطنية فيأخذوا بزمام الطبقة الوسطى حتى لا تبقى تتأرجح فتثير الغبار في طريق الثورة . وليس من شك في ان المثقفين ومن ورائهم الفئات الاخرى من ابناء الطبقة الوسطى التي هي أقرب الى الطبقات العاملة ستكون عوناً لهم في أداء هذه الرسالة .

وفي الوقت عينه ، يترتب على قادة الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين ان يتدبروا هذا الموقف الدقيق ، فيتجنبوا كل ما يثير مخاوف الطبقة الوسطى ويقلقها . فمما لا ريب فيه ، ان ثورة الرابع عشر من تموز ، يعنيها انجاز مهمتها الاساسية أولاً وقبل كل شيء ، وهي

القضاء على الاستعمار وتصفيته نهائياً ؛ وفي الوقت عينه القضاء على الاقطاع وازالة معالم الرجعية ؛ وتلك مهمات تتطلب وحدة الصف ، وتركيز الجهود وتجنب كل ما يثير الخلاف ويبعثر قوى الشعب في معارك جانبية لا طائلة تحتها • ولهذا فان التطرف اليساري ، بالنسبة لمقتضيات الوحدة الوطنية ، عظيم الضرر لانه يعطي الوقود للاستعمار وعملائه لاشعال نار الفتنة وشق وحدة الشعب • وان الذين يندفعون الى اليسار أكثر مما تتطلبه طبيعة الثورة الوطنية وظروفها ، يسهلون من حيث لا يشعرون ، مهمة العملاء والمندسين والجواسيس الذين يخدمون الاستعمار والرجعية •

وان ثورة شعبية مثل ثورة الرابع عشر من تموز ، وهي تستهدف القضاء على الاستعمار والاقطاع والرجعية ، انما تعمل بالضرورة على تحرير الاقتصاد الوطني بديلاً للاستعمار بتعزيز مقام الصناعة الوطنية ، فتتيح للعمال مجال العمل والتقدم ، وتنقذهم من البطالة وتحسن حالهم • وهي تعمل بالضرورة أيضاً على تحقيق الاصلاح الزراعي بديلاً للاقطاع ، فترفع الفلاحين من العدم الى مستوى المواطنة الصالحة وتحرر بذلك ثلاثة اخماس الشعب • ان هذه الثورة بهذه الاهداف لابد وان تجد في العمال والفلاحين خير من يسندها ويستميت في الذود عنها ويرفع رايتها ويجند قواه في تحقيق أهدافها ، من دون تردد ، ومن دون ان يساوره شك أو تراوده دوافع الردة والانتكاس ، فليس في حياته بالامس ما يتوق الى الرجوع اليه ؛ وهو بعد هذا ، ان لم يكسب شيئا كثيراً من وراء الثورة ، فلن يخسر شيئاً على أية حال • اولئك هم

جنود الثورة وعمادها ، وهم في مقدمة الشعب المندفع في تحقيق أهدافها ، وبدونهم لا تكون الثورة ثورة •

وان ثورة الرابع عشر من تموز ، لا يمكن ان تحقق أهدافها بان تفرض حكم الطبقة الوسطى ، وهي كما رأينا ، ليست الطبقة التي تستطيع ان تواجه الاستعمار منفردة ، أو ان تصمد في ميدان المعركة من غير ان تخشى الهزيمة وتميل الى المساومة وهي تشعر ان مصالحها في الميزان • ولا يمكن ان تحقق ثورة الرابع عشر من تموز خدمة مجموع الشعب بقيادة الطبقة الوسطى منفردة ، وهذه الطبقة تساورها الشكوك والمخاوف من اطلاق الحريات للشعب ، وهي تخشى ان تفقد سلطانها وتطغى عليها الطبقات الاخرى • وانما ثورة الرابع عشر من تموز تكون ثورة شعبية تخدم مجموع الشعب باعتبار ان خطوط الالتقاء بين مصالح الطبقات التي يتكون منها الشعب تغلب على ما بين هذه الطبقات من تناقض المصالح ؛ وباعتبار ان هذه الحقيقة بعينها تجعل في الامكان تحقيق حكومة شعبية تخدم مجموع الشعب وتقوم على أساس تحالف الطبقات التي تؤيد الثورة وتعاونها ومن ثم اشتراكها في الحكم على أساس الديمقراطية والقومية المتحررة ؛ وباعتبار ان الديمقراطية والقومية المتحررة هما السبيل الوحيدة التي تستطيع به ثورة الرابع عشر من تموز ان تضمن وحدة الصف الوطني بين طبقات الشعب وقومياته في معركتها الصادقة والحاسمة ضد الاستعمار والاقطاع والرجعية •

ان ثورة الرابع عشر من تموز اذاً ، ثورة شعبية بالضرورة ،

لأن لا سبيل لها لتحقيق أهدافها الا اذا قامت على أساس تعاون ديمقراطي حر بين الطبقات والقوميات التي يتكون منها المجتمع العراقي • وغني عن البيان ، ان أية ثورة ، في مثل هذه المرحلة التي تجتازها الشعوب التواقة الى التحرر من نير الاستعمار ، لا تأخذ بأسباب الديمقراطية والقومية المتحررة ، تنقض وجودها بان تتجرد من كونها ثورة ، فينضب معينها وتنعزل عن الشعب وتفتقد قواه المتدفقة الخلاقة فتضيع في القفر •

* * *

واذ انتهينا من بحث نظرية ثورة الرابع عشر من تموز ، بقي علينا ان نبحث خطة السير أو طريقة العمل التي يمكن بها ان تواصل هذه الثورة تقدمها حتى تبلغ أهدافها • وخطة السير أو طريقة العمل ، جزء لا يتجزأ من نظرية الثورة ، فالتطبيق هو المحك الذي تنجلي فيه حقيقة الثورة ويتحقق بسبيله وجودها وأهدافها معاً • وأسلوب العمل الذي يمكن ان تحقق الثورة فيه أهدافها ، هو الاسلوب المنبثق من طبيعتها وما تريد تحقيقه • فالثورة الشعبية مثلاً لا تتحقق من دون ان يتضامن الشعب بجميع طبقاته في جو من الحرية لتحقيق أهداف مجموع الشعب • والثورة التي تريد ان تحقق الحرية والديمقراطية للشعب لا يمكن ان تصل الى أهدافها عن طريق استبداد فئة بمجموع الشعب • والثورة التي تنشد التحرر القومي لا تقوم بنكران حقوق القوميات الاخرى أو استعبادها •

وثورة الرابع عشر من تموز ، تهدف كما رأينا ، الى تحرير الشعب من الاستعمار والاقطاع والرجعية ، وترمي الى ان تفتح امام هذا الشعب باب الحرية والتقدم على أساس الديمقراطية والقومية المتحررة • وتحقيق الحرية والتقدم للشعب يفترض بالضرورة زوال الاستعمار والاقطاع والرجعية ؛ كما ان زوال الاستعمار والاقطاع والرجعية يفترض بالضرورة أيضا ممارسة الشعب حرياته وبناء اقتصاده الوطني على أساس الصناعة الوطنية والاصلاح الزراعي ؛ وممارسة الشعب حرياته لا تتحقق الا بقيام الديمقراطية والقومية المتحرره • وهذا معناه ان أهداف ثورة الرابع عشر من تموز وطريقتها في العمل مترابطة متلازمة يقوم بعضها ببعض ؛ أي انه لا يمكن الفصل بين نظرية ثورة الرابع عشر من تموز ونجاحها في تحقيق أهدافها من جهة وبين الاسلوب الصحيح لتحقيق هذه الاهداف من جهة أخرى • وبعبارة أخرى ان ثورة الشعب لا تكون شعبية الا اذا جند الشعب كل طاقاته مجتمعة لتحقيق أهدافها ، فثورة الشعب لا تقوم الا بالشعب • وربما كان هذا ، ما عناه الزعيم عبدالكريم قاسم في قوله :

« لقد وجدت الطريق لقبر الاستعمار ••• وهو انطلاق الشعب نحو الحرية بكامله • فلو تمكن الاستعمار من القضاء على فرد أو افراد مهما كان عددهم بالمئات أو الالوف فانه سوف لن يتمكن من ان يقضي على شعب بكامله • »

وفي قوله :

« النقطة الاساسية التي اشتغلنا من اجلها هي تحرير الشعب وانطلاقه ، فاذا الشعب انطلق بحريته فلا

يمكن للايدي الاجنبية والعصاة والمستعمرين القضاء عليه .»

وقوله :

« ان كل ثورة لا تخدم المجموع فهي ثورة فاشلة . »(١٩)

ولما كان من مستلزمات كل خطة ان يكون لها مخطط ، يعين معالم الخطة ويبرز النواحي المهمة فيها بالنسبة لخطورتها ، فان معالم خطة ثورة الرابع عشر من تموز تبدو جلية واضحة في خطب وأحاديث قائد الثورة وزعيمها بالدرجة الاولى ، وتتجلى فيما تحقق من مكاسب الثورة وانجازاتها حتى الان بالدرجة الثانية . وربما استطاع القاريء ان يتلمس معالم هذه الخطة مما سبق بحثه وتبيانه . ولكني أرى ان اقتصر الان على الاشارة الى أبرز معالم هذه الخطة ، وهي في رأيي ، تحقيق وحدة الصف الوطني ؛ الامر الذي يكاد لا يخلو خطاب أو حديث للزعيم عبدالكريم من الاشارة اليه صراحة أو التنويه به ضمناً ؛ وعلى سبيل التأكيد ، لخطورة الموضوع وأهميته ، أورد بعض هذه المقتبسات من خطب الزعيم عبدالكريم واحاديثه :

« اطلب منكم توحيد الصفوف وعدم الانقسام وان لا تدعوا ثغرة يدخل منها الاجنبي فيفرق صفوفكم ويصدع كيانكم . »

« اوصيكم بالقوة والاتحاد للوقوف بوجه الخطر وبوجه المستعمر . »

« اوصيكم بعدم الانقسام ... اوصيكم بالاتحاد . لتكونوا يداً واحدة فتدافعوا عن كيانكم . »(٢٠)

---

(١٩) من خطاب في كلية الاحتياط في ١٣ آب ١٩٥٩ .

(٢٠) من احاديثه مع الوفود التي جاءت تحييه في يوم ٦ آب ١٩٥٨ .

« عليكم بالتعاون ولا تدعوا الاجنبي يدخل بينكم ويفرق صفوفكم . »[٢١]

« انني اطلب ... عدم السماح بظهور اي انقسام . »[٢٢]

« ليكن رائدكم جمع الكلمة وتوحيدها فهي اساس القوة . »[٢٣]

« اريد منكم ان تعملوا على ازالة كل عوامل التفرقة والضغائن . »[٢٤]

« ان الاستعمار لا يتمكن من التغلغل في صفوفنا الا من خلال التفرقة ، فعليكم بالتعاون والتكاتف وعدم اعطاء اي مجال للتفرقة . »[٢٥]

« ارجو ان يتحلى كل واحد منكم بالصبر وبصفتي التعاون والتسامح فيما بينكم ... » .

« ان العدو لا يمكن ان يدخل الى هذه البلاد الا من خلال لتفرقة . »[٢٦]

« ولنكن واقعيين لا خياليين ، ولنقدر ما هو واجب علينا ونصل الى اهدافنا بتماسكنا واتحادنا والابتعاد عن كل ما يفرق الصفوف .. »[٢٧]

« انني اوصيكم ... بالتعاون والتسامح ... ولا تدعو فرصة للعدو ليدخل في صفوفكم ويفرقكم » .

« ان هؤلاء الطامعين في بلادنا والمستعمرين أخذوا يفرقون الصفوف بمنتهى الدعايات ومختلف السبل يذيعونها

---

(٢١) من حديث مع الوفود في ٩ آب ١٩٥٨ .

(٢٢) من خطاب بمناسبة مرور شهر واحد على الثورة .

(٢٣) من حديث مع وفد النجف في ١ ايلول ١٩٥٨ .

(٢٤) من حديث مع وفد الطلبة الاكراد في ١٨ ايلول ١٩٥٨ .

(٢٥) من خطاب في حفلة الشاي التي اقامتها نقابة المعلمين في ٤ شباط ١٩٥٩ .

(٢٦) من خطاب في افتتاح مؤتمر الطلبة في ١٦ شباط ١٩٥٩ .

(٢٧) من كلمة في مقابلة مدراء التربية في ٢٦ شباط ١٩٥٩ .

فيما بينكم ، القصد منها احداث البلبلة والتفرقة في صفوف الشعب ٠ »

« لقد انقطع الطريق على العدو من هذه الناحية ولذلك فانه التجأ الى ناحية اخرى وهي ناحية الدس والتفريق بين الاخوان واحداث البلبلة في الافكار ٠٠٠ »٠

« ان ابناء البلاد لا يفرقهم مفرق وهم يعملون لمصلحة الشعب ولخير هذه البلاد ٠ ان علينا ان ندعم الوحدة الوطنية في داخل البلاد ٠٠ »(٢٨) ٠

« انني اوصيكم ٠٠٠ بمحاربة التفرقة فلا تدعو أحدا يتدخل فيما بينكم أو يفرق صفوفكم ٠٠٠ »(٢٩) ٠

« اطلب منكم التكاتف للحفاظ على مكاسب الثورة والسير في ركب الحرية ٠٠٠ » ٠

« ان الاسلحة الفتاكة التي تفتك في صفوفنا ليست في قوة العدو وانما في التفرقة فيما بينكم ٠٠٠ » ٠

« وعليكم ان تحاربوا السموم ، سموم التفرقة ، وتكونوا يدا واحدة يدعم كل منكم الآخر ٠٠٠ »(٣٠) ٠

« الشيء الذي ارجوه منكم والذي يجب ان يكون من الاسس القوية والدعامات التي نسير عليها ونهتدي بها هو عدم التفرقة ومحاربة الفرقة ٠٠ »

« قد يكون من واجبي ان احذركم ايها الاخوان ، بان بعض العناصر الرجعية وعناصر الشقاق اخذت تندس فيما بينكم ، هدفها التفرقة بينكم والقضاء على الروح الديمقراطية في البلاد فحذار منها حذار منها ! »(٣١) ٠

« انني اوصيكم بدفن الضغائن والاحقاد الماضية وبالتسامح والتعاون فيما بينكم لنتوصل الى الحلول

---

(٢٨) من خطاب في حفلة تخرج دورة ضباط الاحتياط الثالثة عشر في ٢ آذار ١٩٥٩

(٢٩) من كلمة عن موقع بغداد الى مختلف مراتب الجيش في ٩ نيسان ١٩٥٩ ٠

(٣٠) من كلمة في دار الضباط في ٩ نيسان ١٩٥٩ ٠

(٣١) من خطاب في مؤتمر أنصار السلام في ١٤ نيسان ١٩٥٩ ٠

المرضيـة التي تؤمن الرفـاه الى كل فـرد من ابنـاء الشعب »(٣٢) .

« ايها الاخوان ، انني احذركم من دسائس المفرقين ، فهؤلاء يريدون ان يفرقوا الصفوف ... » .

« اننا قد حصلنا على مكاسب كثـيرة لثورتنا ، والواجب يقضي علينا ان نحمي هذه المكاسب . وان هذه المكاسب لا تحمي الا بالاتحاد ... وبالتكاتف فيما بينكم والتسامح ونبذ العداوات ... ونبذ الفرقة »(٣٣) .

« انني ارجو الله عز وجل ... ان يبارك فيكم ابناء الشعب لتكونوا قوة جبارة يشد بعضكم بعضـا تجـاه الطـامعين والمسـتعمرين وتجـاه كـل من يسـيء الى بلدكم ... »(٣٤) .

« ان البلاد اصبحت كتلة واحدة لا تتفرق ولا يتمكن الطامعون والمفرقون ان ينفذوا في منفذ خلال هذا المجتمع ، المجتمع القوي العنود المدافع عن حقه »(٣٥) .

« ... واسأله ان يشد ازر بعضكم الى بعض فتكونوا كالبيان المرصوص لا يفـرقكم مفرق ولا يدخـل اي طامع مفرق بينكم ليفتت عضدكم ويفرق صفوفكم ... »(٣٦) .

* * *

واذا كانت وحدة الصف الوطني هي من ابرز معالم خطة ثورة الرابع عشر من تموز في التطبيق واعظمها خطورة ، فالمقصود من دون ريب ، ان تقوم وحدة الصف هـذه ، على أساس التعبير الحـر عن

---

(٣٢) من خطاب في المؤتمر الاول للجمعيات الفلاحية في ١٥ نيسان ١٩٥٩ .

(٣٣) من خطاب في حفلة اتحاد نقابات العمال في ٣٠ نيسان ١٩٥٩ .

(٣٤) من خطاب في يوم الطفل ١ حزيران ١٩٥٩ .

(٣٥) من خطاب في مؤتمر المهندسين في ٤ حزيران ١٩٥٩ .

(٣٦) من خطاب في مؤتمر اتحاد الشبيبة الديمقراطي في ١١ حزيران ١٩٥٩ .

الارادة العامة لجميع طبقات الشعب وقومياته ، أو بعبارة أخرى ان يكون لكل طبقة مجال لتنظيم نفسها والتعبير عن ارادتها الحرة • والواقع ان الزعيم عبدالكريم قاسم في خطبه واحاديثه اوضح بل وأكد جانب الحرية باعتبار انها السبيل القويم لتحقيق أهداف الثورة ، وعبر عن ذلك ـ كما رأينا ـ في قوله « لقد وجدت الطريق لقبر الاستعمار في هذه البلاد والبلاد المجاورة ••• هو انطلاق الشعب نحو الحرية بكامله » • وفي قوله « النقطة الاساسية التي اشتغلنا من أجلها هي تحرير الشعب وانطلاقه ، فاذا الشعب انطلق بحريته فلا يمكن للاجنبي والعصاة والمستعمرين التغلب عليه » • وما من ريب في ان وحدة الصف لا تكون حقيقية ولا تكون فعالة الا اذا قامت على أساس التعبير الحر عن المصالح المشتركة لجميع الاطراف ، بخلاف الوحدة المصطنعة التي تقوم في ظل الارهاب والكبت لتكون وحدة في العبودية •

والوحدة الحقيقية الفعالة يشترط فيها : أولاً ، تعيين الاطراف التي يمكن الاتفاق فيما بينها على تحقيق أهداف الثورة ؛ وثانياً ، حرية كل طرف من هذه الاطراف ، في حدود المنافسة الديمقراطية ، بان ينتظم في أحزاب ومنظمات تشخص وجوده وتعبر عن ارادته ؛ وهي تستلزم بعد ذلك ، تعيين خطوط المصالح المشتركة بين هذه الاطراف ، والاتفاق فيما بينها على جعل هذه المصالح أساساً لوحدة الصف ، وتركيز الجهود من أجل تحقيقها ، وايقاف النشاط السياسي في كل ما يتعارض معها أو يكون مبعثاً لاثارة المشاحنات بين القوى الوطنية ؛ وتشترط أخيراً ، اتفاق الاطراف المعنية فيما بينها على خطة

واضحة تنسق جهودها وتوجه مجموع قواها ، متمثلة في جبهة وطنية متحدة ذات قيادة مشتركة وزعامة موحدة لتحقيق هذه الاهداف •

وفي رأيي ، ان أهداف ثورة الرابع عشر من تموز ، كما تجلى من بحثنا ، تقوم على نظرية تمثل من حيث الاساس ، المطاليب الرئيسية التي تلتقي فيها مصالح جميع الاطراف التي يعنيها نجاح الثورة ، وتعبر في الوقت عينه عن مقتضيات المرحلة التاريخية ومستلزمات الظروف التي تواجهها البلاد • فليس من ريب ان مكافحة الاستعمار وتصفية الاقطاع وازالة معالم الرجعية وانشاء مجتمع حر يقوم على أساس الديمقراطية والقومية المتحررة ، لا تمثل مجمل أماني الشعب العراقي فحسب ، وانما تمثل في الوقت عينه مقتضيات المرحلة التاريخية التي تواجهنا • وعلى هذا يصح اعتبار هذه المباديء ، الاساس الذي تقوم به وحدة الصف الوطني في جبهة وطنية متحدة تمثل جميع الاطراف التي يعنيها تحقيق هذه المباديء •

ولقد كشف تاريخ الحركة الوطنية في مدى الثلاثين سنة الماضية عن العناصر التي كافحت باخلاص وتصميم وعناد ، في سبيل تحقيق هذه المباديء ، فحق لها بذلك ان تكون عماد الجبهة الوطنية المتحدة التي تقضي الضرورة الوطنية بقيامها ، واعني بها العناصر التقدمية من الشيوعيين والوطنيين الديمقراطيين ، معتدلين ويساريين • وفي رأيي ان مما ييسر تحقيق وحدة الصف الوطني ومن ثم قيام الجبهة الوطنية ، توحيد جميع الوطنيين الديمقراطيين ـ المعتدلين واليساريين ـ في كيان واحد ؛ فذلك أجدى في الواقع وأسلم عاقبة

من انشقاقهم في جماعات متعارضة تبعثر قواهم وتؤول الى جعل تحقيق الجبهة الوطنية أكثر عسرا ٠ فان اجتماع الوطنين الديمقراطيين - معتدلين ويساريين - في كيان واحد لا يزيدهم قوة ومناعة ويعزز ثقتهم بانفسهم وثقة الشعب بهم ويزيد في قدرتهم على القيام بواجبهم الوطني فحسب ، وانما يسهل في الوقت عينه سبيل التفاهم بينهم وبين الشيوعيين ٠ ومهما كان رأي فريق من الوطنيين الديمقراطيين ، فمما لا ريب فيه ، ان وحدة الصف الوطني واقامة جبهة وطنية متحدة فعالة وبالتالى تيسير تحقيق أهداف الثورة ، لا يمكن ان تتم الا اذا تظافرت جهود الوطنيين الديمقراطيين والشيوعيين ٠ وفي رأيي ان تحقيق التفاهم والتضامن بين هذين الطرفين الوطنيين هو من العناصر الاساسية في تحقيق وحدة الصف ومن ثم تحقيق الجبهة الوطنية المتحدة ، بل هو أعظم ضمان لتوطيد أسس الديمقراطية والحرية ومن ثم تحقيق أهداف الثورة ٠ وانه يترتب على جميع الوطنيين الديمقراطيين ان يقدروا ما ينطوي عليه هذا الامر من خطورة ، اذا قيس بالمشاكل الثانوية والخلافات غير الجوهرية التي تقوم الان في سبيل تجمعهم في كيان واحد من جهة ، وفي سبيل تحقيق التفاهم والتعاون والتضامن بينهم وبين الشيوعيين من جهة أخرى ٠ وان هذه المسألة في رأيي ، هي مسألة الساعة ، وهي جديرة ان تكون مدار بحث جدي وجهود مخلصة ، قبل ان يحل الموعد الذي تبدأ فيه الاحزاب ممارسة نشاطها وتجابه المشاركة الفعلية المباشرة في معالجة شؤون البلاد ٠ وليس خير من ان نتأمل في قول الزعيم الامين في هذا الخصوص :

« قد يكون من واجبي ان احـذركم ايهـا الاخوان بان بعض العناصر الرجعية وعناصر الشقاق اخذت تندس فيما بينكم ، هدفها التفرقة بينكم والقضـاء على الروح الديمقراطية في البلاد ؛ فحذار منها ، حذار منها ، ايهـا الاخوان ! اننا لا نريد القضاء على هذه الروح بعد ان حلت هذه الثورة في البلاد • »

الى ان يقول :

« ••• لا اريد ان يندس دعاة الرجعية والفساد فيما بينكم ويحطموا القوى الديمقراطيـة في البـلاد • وكلكم تعلمون قيمة القوى الديمقراطية ومدى تأثيرها على التطور وعلى الابداع في هذا البلد والتخلص والتحرر من الجمود • »

« فالقوى الديمقراطية في البلاد كلها واحدة هدفهـا الحفاظ وصيانة هذه الجمهوريـة الخالدة فعليكم المحافظة على هذه القوى وحذار من عناصر الرجعية والفساد • »(٣٧)

واذا كان من مستلزمات كل ثورة ان يكون على رأس وحدة الصف الوطني ، زعيم يرفع راية الثورة ويعبر عن ارادة جمهورها ويستوعب الاهداف التي ترمي الى تحقيقها ويوجه سيرها ويدرك مداه ، ويكون المرجع الذي تنتهي اليه جميـع خطـوط التنظيـم السياسي والاجتماعي ، فان من اعظم نعم ثورة الرابع عشر من تموز وأخطرها شأناً ، انها لاول مرة في تاريخ العراق استطاعت ان تصهر قوى الحكم وقوى الشعب في وحدة متراصة بزعامة قائد أمين يعبر عن أماني الشعب باخلاص لا حدود لـه ، ويسـتند الى الارادة الاجماعيـة الحـرة للقوى الوطنية التي تتمثل بها طبقات الشعب وقومياته • وليس لاحد ان يمن على الزعيم عبدالكريم قاسم بهذه الزعامة وقد أقرها الشعب

(٣٧) من خطاب بمناسبة انعقاد المؤتمرالثانى لانصار السلام فى ١٤ نيسان ١٩٥٩

بان اعلن على لسان جماهيره المخلصة الصادقة ، انه الزعيم الاوحد ، وانه ابن الشعب البار وقائده الامين ، وانه رائد القومية المتحررة ونصير الديمقراطية والسلام • وليس ذلك مجرد أقوال انبعثت من ضمير الشعب المعترف بالجميل بل انها احكام الواقع الذي نحياه ، الواقع الذي حققه الزعيم عبدالكريم قاسم بضربته المحكمة في فجر يوم الرابع عشر من تموز ، وبخطته الحكيمة التي انجزت للشعب في مدى عام واحد ما لم تستوعبه احلامه المثقلة بكابوس العهد المباد •

* * *

واذا كان الزعيم عبدالكريم قاسم قد عين اليوم السادس من كانون الثاني القادم ، موعداً لانتهاء فترة الانتقال ، فانه لا ريب يقصد انتهاء الدور الاول من فترة الانتقال وابتداء الدور الثاني من هذه الفترة الذي سوف يسمح فيه بقيام الاحزاب السياسية لتتولى مهمة المشاركة الفعلية في مسؤولية انجاز مستلزمات مرحلة الانتقال وتحقيق أهداف الثورة • وما من شك في ان من أولى المهام التي سوف يجابهها الزعيم عبدالكريم قاسم ومن ورائه جميع القوى الوطنية المؤيدة للثورة ، في مستهل الدور الثاني من مرحلة الانتقال ، هي مهمة تحقيق وحدة الصف الوطني على أسس رصينة في جبهة وطنية متحدة • وان انجاز مبادىء الثورة سوف يكون ، من حيث المبدأ ، رهنا بتحقيق وحدة الصف الوطني في هذه الجبهة ، ويتوقف على مدى ما تصيبه من النجاح في أداء مهمتها الدقيقة والخطيرة •

ويستطيع المرء ان يقدر خطورة موضوع وحدة الصف الوطني

من خطة أعداء الثورة • فقد وجهوا هجومهم عليها باعتبارها السد المنيع الذي يحمي الثورة ويصونها ، واعظم قوة تهدد الاستعمار وعملاءه واذنابه من الاقطاعيين والرجعيين وتفت في عضدهم • بل انهم ركزوا هجومهم على أشد عناصر وحدة الصف الوطني صلابة وثباتاً وحيوية ، على اليساريين والشيوعيين ، اعدائهم الالداء • أولاً ، لانهم يعتقدون ان دعايات العهد المباد قد تركت ترسبات يمكن الانتفاع بها في هذا النشاط المنكر ، لاثارة الغبار في جو الثورة باشاعة الشكوك والمخاوف وتشجيع أسباب الخلاف والشقاق • وثانياً ، لاعتقادهم بان الجهاز الذي أعده العهد المباد ودربه في مدى ثلاثين سنة على الاقل ، حذق هذه المهنة واتقن أساليبها الملتوية • وثالثاً ، لانهم يظنون انهم يستطيعون ان يجندوا في هذه المعركة جميع العناصر الفاسدة التي تعرف انها ملوثة وتخشى ان ينكشف أمرها اذا علت شمس النهار ، وليس هنالك من يعرف حقيقتها كالذين كابدوا ويلات مظالمها وعدوانها • ورابعاً لانهم ما يزالون يحسبون انهم باسم مكافحة الشيوعية يستطيعون ان يطاردوا جميع الاحرار من أعداء الاستعمار والرجعية ، وجميع الذين يعملون في الحقل السياسي بامانة واخلاص وحرص على أهداف الثورة • وخامساً ، لانهم في حملتهم على العناصر الديمقراطية ، بجميع مراتبها ، باسم مكافحة الشيوعية ، وهذه العناصر هي قلب الحركة الوطنية المتحررة في جميع بلدان الشرق الاوسط ، يريدون ان يوحدوا جهود الرجعية ويتضامنوا معها في البلدان العربية وغير العربية التي يخشى حكامها ان يكون نجاح الثورة العراقية المتحررة ، وهي تحمل مشعل الحرية ، مبعث خطر على سلطانهم الذي

يقوم على الارهاب وعلى ربط مصالح الحكم المعادي للشعب بعجلة الاستعمار • وأخيراً ، لان هذه الحملة ، حملة مكافحة الحرية والديمقراطية ، باسم مكافحة الشيوعية ، هي الوسيلة التي تيسر لهم سد طريق حركة التحرر الوطني الى التضامن مع شعوب العالم المتحرر الذي يسعى الى توطيد اركان الحرية والسلام في العالم •

وفي اعتقادي ، ان ثورة الرابع عشر من تموز ، وهي الثورة الاصلية ، كما رأينا ، اعظم حدث في الشرق الاوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ؛ اولاً ، لانها أخرجت الاستعمار من قلعته الرئيسية في هذه المنطقة المركزية التي تؤلف حلقة الصلة بين اوربا وآسيا ؛ وليس بخاف ما ينطوي عليه هذا العمل الجبار من خطورة ، وهو الذي انفصمت به حلقة رئيسية في سلسلة المحالفات العدوانية الممتدة من المحيط الاطلسي في أقصى الغرب الى حلف جنوب شرق آسيا في اقصى الشرق ؛ وليس بخاف ايضا ، خطورة موقع العراق بالنسبة لحرية شعوب الشرق الاوسط برمتها ، لا سيما حرية الشعوب العربية التي كان العراق في العهد المباد ، مقر التآمر ضدها والكيد لها • وثانياً ، لان هذه الثورة اطلقت الشعب العراقي الذي كابد الظلم والطغيان مدى قرون ، فوعى ويلاته ومساوءه ، حتى كان تصميمه على الخلاص من الظلم والطغيان جزءاً أصلياً من كيانه ، فتفجرت فيه قناة الثورة الحقة التي لا تلين • وثالثاً ، لان ثورة الرابع عشر من تموز ، على الوجه الذي اوضحناه ، تعبر في الواقع عن أماني شعوب الشرق الاوسط كله ، العربية وغير العربية ، اذ تقوم بأسس سليمة وقويمة ، بالمحتوى الذي كشف عنه

قائدها الامين ؛ وتنسجم كل الانسجام مع حركة التحرر في الشرق الاقصى ، وتتوافر فيها شروط التعاون الوثيق مع قوى الحرية والسلام في العالم كله • وهذه الاسباب مجتمعة كانت الباعث الحقيقي لاستبشار الشعوب المتحررة بفجر الرابع عشر من تموز ؛ وللهلع الذي انتاب عالم الاستعمار حتى كاد ان يفقده صوابه ؛ ويكفي لاظهار مبلغ هذا الهلع ، ان اشير الى ما عبرت عنه الايكونومست البريطانية ، وهي لسان حال الاوساط المالية الانكليزية ، وان اورد جانباً من تعليقها في هذا الخصوص ، حيث قالت : « ان هذه اللحظة أسوأ بكثير من ان تجعلنا نفكر في شيء سوى تقدير الاخطار التي ستواجهنا ، لان الموقف لا يمكن ان يزداد سوءاً عما هو عليه بعد انهيار العراق وتدهور مركز الغرب الى هذا الحد • واذا ما وازنا بين التدخل العسكري وعدم التدخل ، فان نتائج عدم التدخل تعتبر أكثر ضرراً لمصالحنا الاقتصادية والسياسية والستراتيجية من نتائج التدخل » • وتمضي لتقول : « والان وقد هرب الجواد العراقي ، فان القوات الامريكية تنزل في بيروت والقوات البريطانية تنزل في عمان على أمل أن لا يترك باب الاسطبل مفتوحا بعد ذلك لهروب جياد أخرى » •الى ان تقول : « لقد فتحت الجياد باب الأسطبل المغلق وهرب أثمنها ، ولابد ان يمنع بأي ثمن هرب أي جواد آخر ، بل لابد من استرداد الهارب الكبير » • وبهذا التعبير الذي قد يبدو غريباً صدوره من مجلة تتسم بالاتزان وبالوقار ، وهو ليس بغريب على الذهنية الاستعمارية التي تنظر الى الشعوب كما ينظر اقطاعيو القرون الوسطى الى خيلهم وكلابهم ،

لا تكشف هذه الصحيفة عن مبلغ الخسارة التي اصابت معسكر الغرب وستراتيجية العالم الرأسمالي بتحرر العراق من نير الاستعمار فحسب ، وانما تنوه كذلك بمدى تصميم الدول الغربية على عمل كل ما في طاقتها لاسترداد مركزها المفقود ؛ بل وتكشف فوق ذلك عن مقام ثورة الرابع عشر من تموز وأهميتها وما يمكن ان يكون لها من الاثر في معركة التحرر العربي والعالمي . وان في هذا لعبرة لكل عراقي بل وكل عربي متحرر ، تدعوه الى تقدير أهمية ثورة الرابع عشر من تموز والاعتزاز بها والحرص على تأدية واجبه من أجل صيانتها والمساهمة في اتمام رسالتها ، ليس من أجل خير شعبه ووطنه وخدمة امته فحسب ، وانما في الوقت عينه ، من أجل تأدية رسالة شعب العراق الذي اتاحت له ثورة الرابع عشر من تموز ان يساهم في حمل مشعل الحرية في العالم ، ويؤدي واجبه في مضمار تحرير الشعوب وصيانة السلام العالمي . واذا كانت وحدة الصف الوطني هي من حيث المبدأ ، من مستلزمات صيانة ثورة الرابع عشر من تموز وتيسير تحقيق مهمتها التاريخية ، فالاحرى اذاً ، بكل عراقي حريص على محتوى هذه الثورة ان يبذل كل ما يقتضي لتحقيق وحدة الصف الوطني ، من الجهود ونكران الذات . والواقع ان كل حريص على صيانة جمهورية الرابع عشر من تموز ، مدعو اليوم الى العمل من أجل تحقيق وحدة الصف الوطني عن طريق تقدير أهميته وخطورته بالمقارنة الى الاسباب العارضة غير الجوهرية التي يمكن ان تعالج بالتسامح وبطريق الوفاق ، فحتى الذين أضلهم الاستعمار أو استحوذ عليهم جمود الرجعية وأخافهم نور النهار ،

مدعوون الى بعث اليقظة في ضمائرهم والاعتراف باخطائهم والتكفير عنها ، وسلوك السبيل القويم ، سبيل العمل باخلاص وتصميم من أجل صيانة الثورة وتحقيق أهدافها • ولقد فتحت ثورة الرابع عشر من تموز باب التسامح على مصراعيه ، لمن يختار الرجوع الى طريق الصواب ، فأكد الزعيم عبدالكريم قاسم على التسامح في كثير من خطبه واحاديثه وطبقه بالفعل ؛ واننا لنكتفي بان نقتبس هذه الفقرة التي يقول فيها :

« لدينا في هذا البلد اتجاهان : اتجاه يخدم مصلحة وكيان الجمهورية العراقية الخالدة ••• واتجاه آخر ضد كيان هذه الجمهورية ••• واننا لا نقول نعتدى على الاتجاه الآخر ، كلا ، انما نوقفهم عند حدهم ، فهؤلاء لا بد وان يرجعوا عن غيهم ، وان يعودوا الى طريق الرشاد ، طريق خدمة الحق ، ويكونوا من اهل الشهامة والنبل • »(٣٨)

☆ ☆ ☆

ووحدة الصف الوطني ، باعتبارها العنصر الاساسي في خطة الثورة في فترة الانتقال ، ليست وسيلة دفاع عن الثورة فحسب ، وانما هي السبيل الى استكمال خصائص الثورة ومستلزماتها وتوفير ما يقتضي لها من القوة والحيوية والتنظيم المركز ، بحيث يتيسر لها تحقيق أهدافها واتمام رسالتها •

واذ كان من مستلزمات كل ثورة ان تكون لها أهداف واضحة تقوم عليها وحدة الصف الوطني ، وخطة عمل واضحة أيضا ، تنظم جميع القوى الوطنية في جبهة متحدة وتوجه طاقات الشعب نحو تحقيق

---

(٣٨) من خطاب بمناسبة انعقاد المؤتمر الثاني لانصار السلام •

أهداف الثورة ؛ فان من مستلزماتها الاساسية على التحقيق ، قيام وعي شعبي يستند الى منطق مستوحي من أهداف الثورة وخطتها ، يناهض منطق النظام البائد ويبعث في نفوس جمهور الشعب روح الاعتزاز بالثورة ، ويساعدهم في ازالة رواسب الافكار الرجعية ، ويكسبهم المناعة الفكرية ضد الدعايات المعارضة للثورة ، ويصونهم من الوقوع في المكائد التي تدبر ضدها • ووحدة الصف الوطني ضرورة لتوحيد جهود كل المفكرين من رجال العلم والادب ومن الشعراء ورجال الفن ، وهم جنود هذا الميدان الحيوي الذي لا تستغني عنه أية ثورة ؛ لانهم هم الذين يتعهدون بث الوعي ونشر معرفة أهداف الثورة وبناء منطقها وتعزيزه ، والكشف عن معايب العهد الزائل وبيان محاسن العهد الجديد ؛ وهم الذين يستطيعون ان يستجلوا طبيعة الثورة وخصائصها ويسبرون غورها ويصوغون مشاعر الجماهير بما يثير فيهم روح الحمية والحماس ، وذلك عن طريق التأليف والتعليم والشعر والتمثيل ووضع الاناشيد والاغاني وسائر وسائل الثقافة العامة ؛ وهم الذين يكشفون ميزات جمهور الثورة ويؤكدونها ويبثون في هذا الجمهور الذي هو روح الثورة ووجودها ، الشعور بالاعتزاز والثقة والايمان بأهداف الثورة ورسالتها •

ويستطيع المرء ، اذ يفكر لحظة ، ان يجد الفرق بين ظواهر الحياة العامة عندما كان الوفاق قائماً بين القوى الوطنية ، والوضع الذي نشأ بعد ان تعكر جو هذا الوفاق ، ليرى أي جهود تبذل الان في أمور لا طائل تحتها ، ان لم تكن تثير غباراً ساماً يذهب بالنشاط الذي

قد ينفع الحياة العامة هباءً ؟ وليرى كيف ان الوهن الذي أصاب وحدة الصف الوطني ، فسح المجال للاستعمار وعملائه لينشطوا في اختلاق الاكاذيب وترويجها ، وفي بث الشكوك ونشر بذور التفرقة والشقاق ، وفي تشجيع الرذيلة وبلبلة الافكار ، وفي زعزعة عوامل الاستقرار وحث عناصر التآمر والتخريب • ولعل في هذا ما يدعو جميع العناصر الوطنية المعتزة بالثورة ومكاسبها ، والحريصة على توفير اسباب اتمام رسالتها ، ان تبذل جهودا صادقة من أجل تصفية الجو واستعادة الثقة واحلال الوفاق ، لضمان وحدة الصف ، ومن ثم لتحقيق الجبهة الوطنية التي هي من المستلزمات الاساسية للسير بالثورة على خطتها القويمة في سبيل تحقيق أهدافها ، على الوجه الذي اوضحه قائد الثورة وزعيم الشعب •

وثمة سبب آخر ، لا يقل خطورة عما مر بيانه ، يدعو الى وجوب تحقيق وحدة الصف وتجميع القوى الوطنية في جبهة متحدة يكون على رأسها قائد الثورة ؛ ذلك ان الوعي العام المستوحى بمنطق الثورة من أهدافها وخطتها ، يجب ان يتغلغل بالضرورة في صفوف جميع طبقات الشعب وجميع مؤسسات الدولة ومرافقها ، في الجيش وقوى الامن ، وفي معاهد التعليم ودوائر الدولة ، وفي جميع المؤسسات العامة والمنظمات الشعبية ، بحيث يتهيأ لكل مواطن من أفراد الشعب ان يستوعب أهداف الثورة ومنطقها وخطتها في تعليل ظواهر الحياة العامة وفي تنفيذ القوانين والانظمة والتعليمات وسائر التوجيهات التي تعلنها قيادة الثورة • وما لم تتحقق وحدة الصف الوطني ، متمثلة في

جبهة متحدة ، على الوجه الذي أشرنا اليه ، يكون من غير المعقول ان يسمح للآراء المختلفة والاهداف المتضاربة والمفاهيم المتناقضة ، ان تجد طريقها الى مؤسسات الدولة ومرافقها ، خشية ان تصاب بالبلبلة التي تحول دون قيامها بواجباتها العامة على الوجه الذي تقتضيه مصلحة مجموع الشعب .

ولما كان من المستحيل في هذا العصر ، ان يحال دون تسرب الآراء الى المؤسسات العامة والمنظمات المختلفة ، حتى لو اتخذت جميع الاجراءات التي تمنع ممارسة الحريات الديمقراطية ، الامر الذي يناقض أهداف الثورة وخطتها ، فانه لا سبيل الى ضمان الحريات الديمقراطية الا عن طريق الجبهة الوطنية التي تتيح الى جمهور الثورة ممارسة هذه الحريات في الحدود المتفق عليها والتي تنسجم مع أهداف الثورة ومقتضيات خطتها العملية .

كما ان من طبيعة الثورة الشعبية ومن مستلزماتها ان تسبغ على الجيش وقوى الامن طابعها الخاص وان تحقق وتديم اندماج الجيش وقوى الامن بالشعب ، ليؤلفوا جميعاً قوة واحدة منسجمة ومتضامنة ضد كل ما يهدد سلامة الثورة ويحول دون تحقيق أهدافها ، بخلاف الانظمة غير الشعبية المناهضة للارادة العامة التي تجعل الجيش وقوى الامن بمعزل عن الشعب ، لتتخذ منهما أداة ضاربة تفرض بها ارادتها على الشعب بقوة السلاح .

وهكذا نرى ان الوعي المستوحى بمنطق الثورة من أهدافها وخطتها ، وهو من مستلزمات كل ثورة ، لا يتحقق في ثورة شعبية ،

الا عن طريق وحدة الصف الوطني التي تجند له جميع طاقات المفكرين من رجال العلم والشعر والادب والفن ، وتيسر له كل وسائل الثقافة والنشر ، ليجد طريقه الى كل مواطن من أفراد الشعب ، فيجعل منه جندياً فعالاً في سبيل صيانة الثورة ومكاسبها والعمل على تحقيق أهدافها •

ولقد وجد المنطق والوعي خير معبر عنهما في محكمة الشعب • فان هذه « المحكمة العسكرية العليا الخاصة » لم تكن « محكمة شعب » نموذجية فحسب ، بل كانت مدرسة الثورة ولسانها الناطق • فما من مؤسسة في عهد الثورة عبرت مثلما عبرت محكمة الشعب عن مفهوم العدل والمنطق الثوري ، وعن معنى محكمة الشعب ، وعن الاحساسات الصادقة التي تجيش في نفوس جماهير الشعب ؛ وعملت على توجيه الرأي العام وتجاوبت معه ، واجتذبت اليها جمهور الثورة وهي موضع اعتزازه واعجابه ، وبثت فيه الوعي الثوري ، بالاضافة الى واجبها الرسمي • واذا كان هنالك من يأخذ على « محكمة الشعب » خروجها عن حدود واجباتها ، فحري به ان يتذكر ان « محكمة الشعب » هي محكمة ثورة ، لها كيانها الخاص ، تستوحي أصولها وتقاليدها من منطق الثورة ومقتضياتها • فان محكمة الثورة لا تأبه بالمألوف عرفاً ـ لها عرفها الخاص ـ والا لكانت محكمة تقليدية ولما مثلت ارادة جمهور الثورة ولما حكمت باسمها •

* * *

وقد رأينا ان من طبيعة كل ثورة ان ينشأ عنها « مد شعبي » يقوم

بهـا ويكون من مستلزماتها الاساسية ، حتى تحقق اهدافها وتوطـد اركان النظام الجديد •

وكان المد الشعبي الذي انبعث في العراق ، منذ فجر الرابع عشر من تموز ، مداً هائلاً ، انطلقت به القوى الاجتماعية المكبـوتة التي حرمها النظام المباد من الحرية ، وتفجرت فيـه طاقات جماهيريـة خلاقة كشفت عن حيوية فائقة حققت المعجزات ؛ فصهرت عمـوم الناس على اختلاف مصالحهم ومراتبهم ومذاهبهم الدينية والفكريـة في مجموع متضامن مندفع بحماس لم يسبق له مثيـل • وكـان من مظاهـره اندماج الشعب بالحكومـة لاول مرة في تاريخ هـذا البـلد الذي لم يشهد قبلا حكومة تعبر عن امانيـه وتحكم باسمه ، وتحقيق اندماج الجيش بالشعب ليخلق قوة جبارة شلت جهـاز الطغيـان ووضعت الاستعمار وحلفاء الاستعمار امام الامر الواقع ، فلم يجـدوا مناصا من الاعتراف بالعهد الجديد ؛ ودفع قوى الرجعية والفساد الى التخفي وقد غلبها اليأس وفقدت الأمل ولم يبق لها من مخرج غـير الاستسلام او التظاهر بالاستسلام • كان هذا « المد الشعبي » الهـائل الرائع ، من القـوة والاندفاع بحيث شـل في اعداء الثورة كل قدرة على المقاومة من غير صراع وسفك دماء •

ولم يروع الاستعمار ولا فت في عضده شيء كهذا « المد الشعبي » فقـد دأب الاستعمار منذ زمان ، على استغلال انقسام الناس في طوائف وأقليات يشكك بعضهم ببعض ويبث روح التعصب والكراهية فيهم ؛ فاذا اسباب الاختلاف والشقاق تتقطع في طرفة عين ، واذا الخصم الهائل

من افراد الشعب بجميع قومياته ومذاهبه وطوائفه يتوحد في « مد شعبي » يقف بوجه الاستعمار واعداء الثورة فلا يترك لهم منفذا .

وكان العهد المباد يصور للناس ان شعب العراق لا يعرف النظام ولا يرعى حرمة القانون ، وانه لا مناص من ان يحكم هذا الشعب المتمرد بالحديد والنار ، والا فتك بعضه ببعض وشاعت فيه الفوضى واختل النظام العام ؟ فاذا الثورة تشل على حين غرة جهاز الحكم الذي اقامه العهد البغيض ، فلا يختل نظام ولا يقتتل الناس ، وانما يسود البلاد سلام واطمئنان لم يشهد الشعب له مثيلا من قبل ، اللهم الا الفئة الباغية التي لم يكن بد من ان يصيبها الهلع ويستحوذ عليها القلق وقد انهار النظام الذي لم يحسب لغيرها حساباً . وليس من ريب ، ان قسطا كبيراً من الفضل في ذلك يعود الى « المد الشعبي » الذي شارك في حفظ النظام .

وربما كان من اروع مظاهر « المد الشعبي » اشتراك الناس برمتهم في المهرجانات والمسيرات العامة . ولقد شهدت بغداد اعظم هذه المهرجانات والمسيرات اذ اكتضت شوارعها وساحاتها العامة بالجموع فخلت حتى اطراف المدينة من ساكنيها ، ومع ذلك لم يحدث ان ابلغ أحد عن سرقة أو شكا من اعتداء .

لقد كان هذا « المد الشعبي » بحق ، شعلة الثورة واروع ما فيها ، كان مبعث قوة جبارة روعت اعداء الثورة وعززت في الشعب روح الثقة والاطمئنان والامل . فليس غريبا ان يبدأ أعداء الثورة بالتصدي لهذا « المد الشعبي » فيركزوا عليه هجومهم ويجعلونه هدفهم

الاول ومن ورائه جميع المنظمات الديمقراطية التي قومته وقامت به •
وقد استغلوا نزوات التطرف والاخطاء التي ارتكبت بتأثير هذه النزوات ، فاتخذوا منها اساسا بنوا عليه مختلقاتهم واراجيفهم • وليس غريبا على الاستعمار ، بعملائه وجواسيسه ، ان يثير القلاقل ويدبر حوادث الارهاب والجرائم ويشيع عوامل القلق ليلقي مسؤولية ذلك كله على عاتق الجماهير ومنظماتها ، حتى يظهر « المد الشعبي » كباعث للقلق وعدم الاستقرار •

على انه ليس هنالك ريب ، ان عناصر الاستعمار التي هي موضع الشك والريبة ، ما كانت لتجرأ على التصدي للمد الشعبي ومن ورائه المنظمات الديمقراطية ، لو كانت وحدة الصف الوطني قائمة • فما كان الناس عموما ليستمعوا لاقوال الموتورين وصنائع الاستعمار وعملائه ، بل ما كان هؤلاء يستطيعون ان يجدوا سبيلهم الى العمل بهذا اليسر والسهولة ، لو لم تنشأ في وحدة الصف الوطني ثغرات اندسوا منها ليشيعوا الشقاق والتفرقة ويوسعوا شقة الخلاف بين الوطنيين •

وهكذا نجد انفسنا مرة اخرى امام الضرورة الملحة لتعزيز وحدة الصف الوطني ، من أجل استكمال خصائص الثورة ومستلزماتها الاساسية ، باستعادة « المد الشعبي » حيويته وقوته مرة اخرى • فان « المد الشعبي » الذي هو من مظاهر كل ثورة ، لا يكفي ان يتفجر عما تحتاج اليه الثورة من حيوية في اول عهدها فحسب ، وانما من الضروري ان يبقى متفجراً منطلقاً حتى تتم الثورة رسالتها ،

باعتباره عنصرا اساسيا يوفر للثورة طاقات جماهيرية خلاقة وبنـاءة ، ولانه عامل فعال في شحذ الهمم وتشـجيع روح الابتكـار والابداع والسمو بمشاعر الجماهير وتعزيز روح التضامن والتضحيـة والصبر في صفوفهم ٠

* * *

ومن مستلزمات الثورة ان يتوفر لها مجال تعبأة قوى المجتمع بجملتها ، في تنظيم عام لا ينحصر في الصعيد السياسي فقط بل يمتد الى جميع ميادين الحياة العامة ليشمل مختلف اوجه النشاط فيها ، هدفه ادامة « شعلة الثورة » واستمرار « المد الشعبي » في انطلاقه وتنميـة الوعي الثوري واشاعته ، باثارة الحماس وشحذ الهمم وتعزيز وحدة الصف والتنبيه الى ضرورة اليقظة والحذر وبذل الجهود الى العمل الانشائي المتواصل ، حتى يستشعر جمهور الثورة انه يخوض معركة لا هوادة فيها لتحقيق أهداف الثورة ٠

ولم تعـد التعبأة العـامة على هـذا الوجـه من حيث وجودها وخطورتها ، غريبة علينا وقد لمسناها جميعاً ومارسها الشعب فعلاً ، وبلغت أوج قوتها في خلال العام الاول من حياة الثورة ، وكان لها الاثر الاكيد في انتصار الثورة وفي احباط مؤامرات اعدائها ٠ ولكننا لا نكشف سراً اذا قلنا ان مجال هذه التعبأة العامة لجميع القوى الوطنية من أجل تعزيز مقام الثورة وصيانة مكاسبها يواجه اليـوم أزمة خطـيرة ٠ وما من شك في ان الاستعمار والرجعية وبقية أعداء الثورة هم المسؤولون في الدرجة الاولى عن ظهور هذه الازمة واشتدادها ٠ لكن نجاحهم

هذا يقوم بذاته دليلاً على وجود علل يسرت لهم هذا النجاح ، فيكون من واجبنا ان نستقصي منشأ هذه العلل واسبابها ونعمل على معالجتها •

واذا أغفلنا الاسباب العارضة التي أوجدت في الصف الوطني ثغرات يسرت للاستعمار ان ينفذ الى حيث يستطيع ان يعمل على استعجال ظهور هذه الازمة ، فان عواملها الحقيقية هي في الواقع أبعد غوراً واعظم خطورة ؛ وربما امكن ايجازها ، أو الاحرى الاقتصار على ذكر أهمها ، في عاملين ، هما : ضعف روح الانضباط ، وغلبة عنصر السلبية بالمقارنة الى عنصر الايجابية الانشائية ، في كيان التعبأة العامة التي تفجرت بالثورة •

ولكلا العاملين جذوره العميقة في تاريخ الشعب العراقي وتكوينه • اما الانضباط ، أو بعبارة أخرى ، احترام القانون ، فمرد الضعف فيه خضوع الشعب في مدى قرون وقرون الى انظمة حكم لم تكن تعبر عن ارادته ولا عبرت عن مصالحه وانما فرضت عليه بالارهاب ، حتى تأصلت فيه عادة النفرة من القانون تأصل روح الثورة المتأججة التي تستنكر الاستبداد وتهوى الحرية ، اذ اقترن القانون في ذهنه بالاستبداد والاعتداء والجور • ولو لم يكن هذا الشعب الجبار شديد النزعة الى الحرية صلب العود شديد العناد ، للانت قناته منذ زمان ولأصبح عبداً سهل القياد لقسوة ما كابد من الظلم والطغيان في مدى قرون • ولهذا كان هذا الشعب على سرعة استجابته لداعي الثورة وقوة مراسه في الوقوف بوجه السلطة التي لا يدين لها

بالولاء ، كثير الشكوك بأجهزة الحكم ميالاً الى ان يتصرف في الأمور العامة على الوجه الذي يعتقد انه الصواب . وذلك في الحقيقة عنصر من عناصر القوة حري بان يكون أساساً رصيناً لاقامة صرح الحرية ، اذا توفرت له العناية التي تنمي في الشعب الثقة بان القانون انما يعبر عن ارادته ويقصد به خيره وانه السبيل لتحقيق ما يتوق اليه من الحرية . وانه لحري بنا ان نتذكر على الدوام ، ان من بين اعداء الحرية ، اولئك الذين لا يلتزمون حدودها أو لا يحرصون على حسن الانتفاع بها .

* * *

والعامل الثاني ، وهو غلبة عنصر السلبية بالمقارنة الى عنصر الايجابية الانشائية ، ذو صلة وثيقة بالعامل الاول من حيث جذوره التاريخية ، باعتبار ان السلبية تجاه القانون تتحول الى سلبية تجاه النظام فتحول دون نمو بواعث التعاون الايجابي الذي هو أساس التعاون الانشائي . ومآل هذا في الواقع ، ان دواعي الاستجابة الى المعارضة والتحدي تتوفر في الشعب أكثر مما تتوفر فيه دواعي الاستجابة الى البناء والانشاء . وتلك نزعة ظاهرة في الجمهور ، مردها الى انه مارس السلبية والمعارضة أكثر مما مارس حرية التنظيم في جميع ميادين الحياة العامة السياسية وغير السياسية ، وبالتالى حرم من ممارسة التعاون الايجابي في انشاء مقومات حياته .

على انه اذا كانت الجذور السياسية التاريخية في ضعف روح الانضباط هي الغالبة ، فان المؤثرات الاجتماعية في غلبة عنصر السلبية

بالمقارنة الى عنصر الايجابية الانشائية لا تقل شأناً عن المؤثرات السياسية في تكوين هذا العامل • ذلك ان انعزال العراق عن العالم الخارجي الى عهد قريب ، وضعف صلة اجزائه ببعضها وغلبة الحياة القبلية وفقدان الحياة القروية وجدة الحياة المدنية ، كل هذه الاسباب أدت الى تأخر الحياة الاجتماعية فيه ومن ثم كانت العلة الرئيسية في فقدان المنظمات الاجتماعية التي تربى في الشعب سجية التعاون الانشائي •

وانه لحري بنا ان نأخذ هذه الامور بعين الاعتبار في معالجة شؤون التنظيم السياسي والاجتماعي على السواء ، في ضوء ما تهيأ لنا من الفرص في ظل جمهوريتنا وبفضل ثورتنا ، لانشاء حياة عامة سليمة تقوم على الديمقراطية والقومية المتحررة • واذا كان من مستلزمات الثورة ان تعبأ قوى المجتمع في تنظيم عام على الصعيد السياسي والاجتماعي وفي جميع ميادين الحياة العامة ، فان من مستلزمات هذا التنظيم ان يتوفر لمعالجة مشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية بالاظافة الى توجيه الجهود لصيانة الثورة ومكاسبها ؛ فينمي فينا روح النظام ومراعاة قوانين جمهوريتنا الديمقراطية وهي تعبر عن ارادة الشعب وتضمن تحقيق المصلحة العامة ؛ ويربي فينا سجية التعاون الايجابي لبناء مجتمع متطور ينشد الحرية والسلام • وهذا معناه ، ان التنظيم السياسي والاجتماعي ، وهدفه ادامة « شعلة الثورة » وانطلاق « المد الشعبي » وتنمية الوعي الثوري ، يجب ان يستهدف في الوقت عينه ، تعزيز روح النظام وتوجيه النشاط العام الى التعاون الايجابي في مضمار البناء والاعمار •



ومهمة تربية سجية التعاون الايجابي في سبيل الانشاء ، هي في الواقع ، مهمة التنظيم الرئيسية في الظرف الراهن ، لتحقيق أهداف الثورة وضمان مستقبل الشعب وحريته • واذا كان للثورة وجه سلبي وهو تقويض اركان النظام المباد ، وقد أظهر الشعب العراقي فيه من روعة الانجاز وقوة الاندفاع ما أثار اعجاب العالم كله ، فان الوجه الآخر الذي يتطلب انشاء مقومات العهد الجديد ، هو الآن في المقام الاول بين واجبات الثورة ؛ ولا سبيل الى الفوز فيه الا بالتعاون الايجابي في مضمار البناء • والتعاون الايجابي في سبيل الانشاء لا يمثل الان أهم مستلزمات مرحلة الانتقال فحسب ، وانما هو في الوقت عينه الضمان الاكيد لاستقرار الثورة وسلامتها •

وان مما يعزز ثقتنا بالمستقبل ، ان شعبنا عظيم التعلق بالحرية لقسوة ما عاناه من ضروب الظلم والطغيان ، وهو تقدمي بطبعه لخبرته الطويلة بالرجعية ونفرته منها بعد ان عرفها حليفاً للاستبداد والاستعمار ، وهو بعد هذا ، واقعي رصين في تفكيره يستطيع ان يميز بين ما فيه خيره وما يؤول الى ضرره اذ انه يأخذ الامور بالشك حتى يكون منها على يقين •

مطبعة الرابطة - بغداد
١٩٥٩